تفسير
سورة محمد
(شباب)

مسابقة اقرأ القرآنية
النسخة الثالثة عشر
1441-2019
iqrasociety
جمعية اقرأ لعلوم القرآن
IQRA SOCIETY FOR QURAN SCIENCES
اقرأ

جمعية اقرأ لعلوم القرآن
IQRA SOCIETY FOR QURAN SCIENCES

تفسير
سورة محمد

(شباب)

مسابقة اقرأ القرآنية
النسخة الثالثة عشر

1441-2019
iqrasociety

محتوى السُّورةِ:

سُمِّيتْ هذهِ السُّورةُ بسورةِ مُحمَّدٍ (ص) لأنَّ اسمَهُ الشريفَ قد ذُكِرَ في الآية الثَّانية، واسمُها الآخرُ هو سورةُ القتالِ، والواقع أنَّ مسألةَ الجهادِ، وقتالَ أعداءِ الإسلام هو أهمُّ موضوعٍ ألقى ظلالَهُ على هذهِ السُّورة، في حين أنَّ جزءًا مُهمًّا آخرَ مِنْ آياتِ هذهِ السُّورةِ يتناولُ المقارنةَ بينَ حالِ المؤمنينَ، والكافرين، وخصائصِهم، وصفاتِهم، وكذلك المصيرَ الَّذي ينتهي إليهِ كُلّ مِنْهُمَا في الحياةِ الآخرةِ.

ويمكنُ تلخيصُ محتوى السُّورةِ بصورةٍ عامَّةٍ في عدَّةِ فصولٍ:

1 – مسألةُ الإيمانِ، والكفرِ، والمقارنةُ بينَ أحوالِ المؤمنين، والكُفَّارِ في هذهِ الدُّنيا، وفي الحياةِ الآخرةِ.

2 – بحوثٌ مُعبِّرةٌ، بليغةٌ، وصريحةٌ حول مسألةِ الجهادِ، وقتالِ المشركين، والتَّعليماتِ الخاصَّةِ فيما يتعلَّقُ بأسرى الحربِ.

3 – شرحُ أحوالِ المنافقين الَّذينَ كانتْ لهم نشاطاتٌ هدَّامةٌ كثيرةٌ حين نزولِ هذهِ الآياتِ في المدينةِ.

4 – فصلٌ آخرُ يتناولُ مسألةَ السَّيرِ في الأرضِ، وتدبُّرِ مصيرِ الأقوامِ الماضينَ، وعاقبتِهم، كدرسٍ للاعتبارِ، والاتِّعاظِ.

5 – وفي جانبٍ مِنْ آياتِ هذهِ السُّورةِ، ذُكرتْ مسألةُ الاختبارِ الإلهيِّ؛ لمناسبتِها موضوعَ القتالِ، والجهادِ.

6 – وردَ الحديثُ في فصلٍ آخرَ عَنْ مسألةِ الإنفاقِ الَّذي يُعتبَر بحدِّ ذاتِه نوعًا مِنَ الجهادِ، وجاءَ الحديثُ عَنْ مسألةِ البخلِ الَّذي يقعُ في الطَّرفِ المُقابلِ.

7 – وتناولتْ بعضُ آياتِ هذهِ السُّورةِ –لمُناسبةِ موضوعِهَا– مسألةَ الصُّلحِ معَ الكُفَّارِ –الصُّلحِ الَّذي يكونُ أساسًا لهزيمةِ المسلمين وذلّتِهم– ونهتْ عَنْهُ.

وبالجملةِ، فبملاحظةِ أنَّ هذهِ السُّورةَ قد نزلتْ في المدينةِ حينما كان الاشتباكُ شديدًا بينَ المسلمينَ، وأعداءِ الإسلام، وعلى قولِ بعضِ المُفسِّرينَ أنَّها نزلتْ أثناءَ معركةِ أُحُد، أو بعدَها بقليلٍ؛ فإنَّ أهمَّ مسألةٍ فيها هي قضيةُ الجهادِ، والحربِ، وتدورُ بقيَّةُ المسائلِ حولَ ذلك المحورِ: الحربُ المصيريَّةُ الَّتي تُميِّزُ المؤمنينَ عَنِ الكافرينَ، والمنافقين، والحربُ الَّتي كانت تُثَبِّتُ دعائمَ الإسلام، وردَّتْ كيدَ الأعداءِ الَّذينَ هبُّوا للقضاءِ على الإسلامِ والمسلمينَ في نحورِهم وأوقفتهم عِنْدَ حدِّهم.

فضلُ تلاوةِ السُّورةِ:

جاءَ في حديثٍ عَنْ نبيِّ الإسلامِ الأكرم(ص): «مَنْ قرأَ سورةَ مُحمَّدٍ كانَ حقًّا على اللهِ أنْ يسقيَهُ مِنْ أنهارِ الجنَّةِ»[1]. ورُوِيَ في كتابِ ثوابِ الأعمالِ عَنِ الصَّادقِ(ع)، أنَّهُ قالَ: «مَنْ قرأَ سورةَ الَّذينَ كفروا –سورةَ مُحمَّدٍ لم يَرْتَبْ أبدًا، ولم يدخلْهُ شكٌّ في دينِه، ولم يبتلِه اللهُ بفقرٍ أبدًا، ولا خوفِ سلطانٍ أبدًا، ولم يزلْ محفوظًا مِنَ الشِّركِ والكفرِ أبدًا حتَّى يموتَ، فإذا ماتَ وَكَّلَ اللهُ بهِ في قبرِه ألفَ مَلَكٍ يُصلُّونَ في قبرِه، ويكونُ ثوابَ صلاتِهم لهُ، ويُشيِّعونَهُ حتَّى يوقفوهُ موقفَ الأمنِ عِنْدَ اللهِ عزَّ وجلَّ، ويكونُ في أمانِ اللهِ، وأمانِ مُحمَّدٍ»[2].

1. مجمع البيان، المجلَّد 9، بداية سورة مُحمَّد.
2. ثواب الأعمال، طِبقًا لنقل نور الثَّقلين، المجلَّد 5، صفحة 25.

مِنَ الواضحِ أنَّ الَّذينَ جرى محتوى هذهِ السُّورةِ في دمائهم، وتشبَّعتْ بهِ أرواحُهم، وهم أشدَّاءُ في جهـادِ الأعداءِ اللَّدودين القساة، والَّذينَ لم يدعوا للشكِّ والتَّزلزُل إلى أنفسهـم سبيلاً؛ تكون أسسُ دينهم قويـةً، وإيمانهم صلبًا، ولا يملكهم خوفٌ، ولا تنالهم ذِلَّةٌ، ولا يعتريهم فقرٌ، وهم في الآخرةِ مُنعَّمون في جوارِ رحمةِ اللّٰهِ.

وجاءَ في حديثٍ آخرَ أنَّ الإمامَ(ع) قال: «مَنْ أرادَ أنْ يعرفَ حالَنَا، وحالَ أعدائنا؛ فليقرأْ سورةَ مُحمَّدٍ؛ فإنَّهُ يراها آيةً فينا، وآيةً فيهم»[3].

وقد نَقَلَ هذا الحديثَ مفسِّرُو السُّنَّةِ أيضًا، كالآلوسي في روح المعاني[4] والسّيوطي في الدُّرِّ المنثور[5].

وهـذهِ السُّورةُ تبيانٌ لحقيقةِ أنَّ أهلَ بيتِ النَّبـيِّ(ع) كانوا أنموذجًا لأكملِ الإيمانِ وأتمِّهِ، وأنَّ بني أُميَّةَ كانوا المثالَ البارزَ للكفر، والنفاق.

صحيـحٌ أنَّهُ لم يردْ تصريحٌ باسمِ أهلِ البيـتِ، ولا باسمِ بني أُميَّةَ في هذهِ السُّورةِ، لكنْ لمَّا كان البحثُ فيها عَنْ فئةِ المؤمنين، والمنافقين، وخصائصِ كُلٍّ مِنْهُما؛ فإنَّها تُشيرُ قبل كُلِّ شيءٍ إلى مصداقَيْنِ واضحَيْنِ، ولا مانعَ في الوقتِ نفسِهِ مِنْ أنْ تشملَ السُّورةُ سائرَ المؤمنين، والمنافقين.

3. مجمع البيان، المجلَّد 9، أوّل السُّورة.
4. روح المعاني، المجلَّد 26، صفحة 33.
5. الدر المنثور، المجلَّد 6، ص 46.

الآيـــــــــــــات 1 - 3

﴿الَّذِيـنَ كَفَـرُواْ وَصَدُّواْ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ أَضَـلَّ أَعْمَالَهُمْ (1) وَالَّذِيـنَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـالِحَـاتِ وَآمَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِـنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَآتِهِمْ وَأَصْلَـحَ بَالَهُمْ (2) ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِيـنَ كَفَرُواْ اتَّبَعُواْ الْبَـاطِلَ وَأَنَّ الَّذِيـنَ آمَنُواْ اتَّبَعُواْ الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (3)﴾

التَّفسير:

المؤمنونَ أنصارُ الحقِّ، والكافرونَ أنصارُ الباطلِ:

إنَّ هـذهِ الآياتِ الثلاثَ تُعتـبرُ في الحقيقةِ مُقدِّمةً لأمرٍ حربـيٍّ مُهمٍّ صدرَ في الآيةِ الرَّابعـةِ، فبيَّنـتِ الأُولى منْها وضـعَ الكافريـن، وحالَهم، والثَّانيةُ حـالَ المؤمنينَ، وقارنـتْ ثالثتُهما بينَ الاثنـينِ، وذلك لتتهيَّأَ الأرضيَّةُ، والاستعـدادُ للجهادِ الدِّينيِّ ضدَّ الأعداءِ الظالمينَ، العتاةِ باتِّضاحِ حالِ الفئتين.

تقـولُ الآيـةُ الأُولى: (الَّذينَ كفروا وصدُّوا عَـنْ سبيلِ اللّهِ أضـلَّ أعمالَهُم) وهيَ إشـارةٌ إلى زعماءِ الكفرِ، ومُشركـي مكَّةَ الَّذينَ كانوا يُشعلـونَ نارَ الحروبِ ضدَّ الإسـلام، ولم يكتفـوا بكونهم كفَّارًا، بـل كانوا يصدُّونَ الآخريـنَ عَنْ سبيلِ اللّهِ بأنواعِ الحيَلِ، والخِدَعِ، والمُخطَّطـاتِ. ومعَ أنَّ بعضَ المُفسِّرينَ -كالزَّمخشريِّ في الكشَّافِ- فسَّرَ «الصدَّ» هنا بمعنى الإعراضِ عَنِ الإيمانِ، في مُقابلِ الآيةِ التَّاليةِ الَّتـي تتحدَّثُ عَنِ الإيمانِ، إلَّا أنَّ الإحاطةَ بمواردِ استعمالِ هذهِ الكلمةِ في القرآنِ الكريمِ تُوجِبُ الحفاظَ على معناها الأصليِّ، وهو المنعُ.

على تعليماتِ هذا النَّبيِّ العظيم ومناهجِه، وهوَ مِنْ قبيلِ ذكرِ الخاصِّ بعد العامِّ، وتبيانٌ لحقيقةِ أنَّ الإيمانَ باللهِ سُبحانَهُ لا يتمُّ أبدًا بدونِ الإيمانِ بما نزلَ على النَّبيِّ(ص).

ويُحتمـلُ أيضًا أنْ تكونَ الجملةُ الأُولى إشـارةً إلى الإيمانِ باللهِ تعالى، ولها جانبٌ عقائديٌّ، وهذهِ الجملةُ إشارةٌ إلى الإيمانِ بمحتوى الإسلامِ، وتعليماتِ النَّبيِّ(ص)، ولها الجانبُ العمليُّ.

وبتعبيرٍ آخرَ، فإنَّ الإيمانَ باللهِ سُبحانَهُ لا يكفي وحدَهُ، بل يجبُ أنْ يؤمنوا بما نزلَ علـى النَّبيِّ(ص)، وأنْ يكونَ لهم إيمانٌ بالقرآنِ، إيمانٌ بالجهادِ، إيمانٌ بالصلاةِ، والصَّومِ، وإيمانٌ بالقيمِ الأخلاقيَّةِ الَّتي نزلتْ عليهِ.

ذلكَ الإيمانُ الَّذي يكونُ مبدأً للحركةِ، وتأكيدًا على العملِ الصَّالحِ.

ومِمّـا يستحقُّ الانتباهَ أنَّ الآيةَ تقولُ بعدَ ذكرِ هـذهِ الجملةِ: (وهوَ الحقُّ مِنْ ربِّهم) وهي تعني أنَّ إيمانَهم لم يكنْ تقليدًا، أو أنَّهُ لم يَقُمْ على دليلٍ وحُجَّةٍ، بل إنَّهم آمنوا بعدِ أنْ رأوا الحقَّ فيهِ.

وعبارةُ (مِـنْ ربِّهم) تأكيدٌ على حقيقةِ أنَّ الحقَّ يأتـي دائمًا مِنْ قِبَلِ اللهِ سُبحانَهُ، فهوَ يصدرُ مِنْهُ، ويعودُ إليهِ.

والجديـرُ بالالتفاتِ إليهِ أنَّ الآيةَ تُبـيِّنُ ثوابينِ للمؤمنينَ الَّذينَ يعملونَ الصَّالحاتِ، في مُقابـلِ العقابينِ اللَّذينِ ذُكِرَا للكفَّارِ الصَّاديـنَ عَنْ سبيلِ اللهِ: أوَّلُهما: التَّكفيرُ عَنِ السَّيِّئاتِ الَّتي لا يخلو مِنْها أيُّ إنسانٍ غيرِ معصومٍ، والثَّاني: إصلاحُ البالِ.

والمـرادُ مِنْ: (أضـلَّ أعمالهم) أنَّهُ يُحبطُهـا ويجعلُها هباءً منثـورًا؛ لأنَّ الإحباطَ، والإضاعةَ كنايةٌ عَنْ بقاءِ الشيءِ بدون حمايةٍ، ولا عمادٍ، ولازمُ ذلكَ زوالُهُ وفناؤه.

وعلـى أيَّةِ حالٍ، فإنَّ بعضَ المُفسِّرينَ يرونَ أنَّ هذهِ الجملةَ إشارةٌ إلى الَّذينَ نَحروا الإبلَ يومَ بدرٍ، وأطعموها الناسَ، إذ نحرَ أبو جهلٍ عشرةً مِنَ الإبلِ، ومثله صفوانُ، وسُهيلُ بن عمرٍ، لإطعامِ جيشِ الكفر[1].

لكـنْ لمَّا كانتْ هـذهِ الأعمالُ مِـنْ أجلِ التَّفاخـرِ، ومكائدِ الشيطانِ؛ فقـد أُحبطتْ جميعًا. غيرَ أنَّ الظَّاهرَ أنَّها لا تنحصرُ بهذا المعنى، بل إنَّ كُلَّ أعمالهم الَّتي قاموا بها، وظاهرُها معونةٌ للفقراءِ، والضعفاء، أو إقراءٌ للضَّيفِ، أو غيرُ ذلك، ستُحبطُ لعدم إيمانهم.

وبغضِّ النَّظرِ عَنْ ذلك، فـإنَّ اللّهَ سُبحانَهُ قد أحبطَ كُلَّ مؤامراتهم، وما قاموا بهِ مِـنْ أعمالٍ لمحوِ الإسلام، والقضاءِ على المسلمـين، وحالَ بينَهُم وبينَ الوصولِ إلى أهدافِهم الخبيثةِ.

والآيةُ التَّاليةُ وصفٌ لوضعِ المؤمنينَ الَّذينَ يقفونَ في الصفِّ المُقابلِ للكافرينَ الَّذينَ وردتْ صفاتُهـم في الآيةِ السَّابقةِ، فتقولُ: (والَّذينَ آمنوا وعملوا الصَّالحاتِ وآمنوا بما نُزِّلَ على مُحمَّدٍ وهو الحقُّ مِنْ ربِّهم كفَّرَ عَنْهُم سيئاتِهم وأصلحَ بالَهم)[2].

إنَّ ذكرَ الإيمانِ بما نزلَ على نبيِّ الإسلامِ (ص) بعدَ ذكرِ الإيمانِ بصورةٍ مُطلقةٍ، تأكيدٌ

1. روح المعاني، المجلَّد 26، صفحة 33.
2. اعتبر جماعة مِنَ المُفسِّرين جملة (وهو الحقُّ مِنْ ربِّهم) جملةً مُعترضةً.

لقدْ جاءَ «البالُ» بمعانٍ مختلفة، فجاءَ بمعنى الحالِ، العملِ، القلبِ، وعلى قولِ الرَّاغبِ: بمعنـى الحالاتِ العظيمةِ الأهميـة، وبناءً على هذا فإنَّ إصلاحَ البـالِ يعني تنظيمَ كُلِّ شـؤونِ الحياةِ، والأُمـورِ المصيريَّةِ، وهوَ يشمـلُ -طبعًا- الفوزَ في الدُّنيـا، والنجاةَ في الآخـرةِ، علـى عكسِ المصـيرِ الَّذي يُلاقيهِ الكُفَّـارُ، إذ لا يصلونَ إلى ثمـرةِ جهودِهم، ومساعيهـم، ولا نصيبَ لهـمْ إلَّا الهزيمةُ والخسرانُ بحكم: (أضـلَّ أعمالَهُم). ويمكنُ القولُ بأنَّ غفرانَ ذنوبِهم نتيجةَ إيمانِهم، وأنَّ إصلاحَ بالِهِم نتيجةَ أعمالِهم الصَّالحةِ.

إنَّ للمؤمنينَ هدوءًا فكريًّا، واطمئنانًا روحيًّا مِنْ جهة، وتوفيقًا، ونجاحًا في برامجِهم العمليَّـةِ مِنْ جهةٍ ثانية؛ فـإنَّ لإصلاحِ البالِ إطارًا واسعًا يشمـلُ الجميعَ، وأيُّ نعمةٍ أعظمُ مِنْ أنْ تكونَ للإنسانِ روحٌ هادئةٌ، وقلبٌ مُطمئِنٌّ، وبرامجُ مفيدةٌ بنَّاءةٌ.

وبيَّنـتِ الآيةُ الأخـيرةُ العلَّةَ الأساسيَّةَ لهـذا الانتصارِ، وتلكَ الهزيمـةِ، مِنْ خلالِ مقارنةٍ مُختصرةٍ بليغـة، فقالتْ: (ذلك بأنَّ الَّذينَ كفروا اتَّبعُوا الباطلَ وأنَّ الَّذينَ آمنوا اتَّبعُوا الحقَّ مِنْ ربِّهم).

هُنا يكمنُ سرُّ المسألةِ بأنَّ خطَّي الإيمانِ والكفرِ يتفرَّعانِ عَنْ خطَّي الحقِّ والباطلِ، فالحقُّ يعني الحقائقَ العينيَّةَ، وأسماها ذاتَ اللهِ المُقدَّسةِ، وتليها الحقائقُ المُتعلِّقةُ بحياةِ الإنسانِ، والقوانينِ الحاكمةِ في علاقتِهِ باللهِ تعالى، وفي علاقتِهِ بالآخرينَ.

والباطـلُ يعني الظُّنُـونَ، والأوهـامَ، والمكائدَ والخِـدَعَ، والأساطـيرَ، والخرافاتِ، والأفعـالَ الجوفاءَ الَّتي لا هـدفَ مِنْ ورائِهَا، وكُلَّ نوعٍ مِـنَ الانحرافِ عَنِ القوانينِ الحاكمةِ في عالمِ الوجودِ.

نعـم، إنَّ المؤمنينَ يتَّبعونَ الحـقَّ، وينصرونَهُ، والكُفَّارُ يتَّبعـونَ الباطلَ، ويؤازرونَهُ، وهُنا يكمنُ سرُّ انتصارِ هؤلاءِ، وهزيمةِ أُولئكَ.

يقولُ القرآنُ الكريمُ: (وما خلقنا السَّماءَ والأرضَ وما بينَهُمَا باطلاً)[3].

وفسَّرَ البعضُ «الباطلَ» بالشَّيطانِ، وآخرونَ بالعبثيَّةِ، لكـنْ كما قُلنا، فإنَّ للباطلِ معنًى واسعًا يشملُ هذينِ التَّفسيرينِ وغيرَهُما.

وتُضيفُ الآيةُ في النِّهايةِ: (كذلكَ يضربُ اللهُ للنَّاسِ أمثالَهُم) أيْ: كما أنَّهُ سُبحانَهُ قـد بيَّنَ الخطوطَ العامَّةَ لحياةِ المؤمنينَ، والكُفَّارِ، وعقائدَهم، وبرامجَهم العمليَّةَ، ونتائجَ أعمالِهم في هذهِ الآياتِ؛ فإنَّهُ يُوضِّحُ مصيرَ حياتِهم، وعواقبَ أعمالِهم.

يقـولُ الرَّاغبُ في مفرداتِهِ: المثلُ عبـارةٌ عَنْ قولٍ يُشبهُ قولاً في شـيءٍ آخرَ، بينَهُمَا مُشابهـةٌ، يُبـيِّنُ أحدُهُما الآخرَ. ويُستفادُ مِنْ كلامِ آخرَ لـهُ أنَّ هذهِ الكلمةَ تُستعملُ أحيانًا بمعنى «المُشابهةِ»، وأحيانًا بمعنى «الوصفِ».

والظَّاهرُ أنَّ المُرادَ في هذهِ الآيةِ هو المعنى الثَّاني، أيْ إنَّ اللهَ سُبحانَهُ يصفُ حالَ النَّاسِ هكذا، كما مثَّلَ الجنَّةَ في الآيةِ (15) مِنْ سورةِ مُحمَّدٍ: (مثلُ الجنَّةِ الَّتي وُعِدَ المُتَّقونَ).

وعلـى أيَّـةِ حالٍ، فالَّـذي يُستفادُ مِنْ هـذهِ الآيةِ جيِّـدًا، أنَّنا كُلَّما اقتربنـا مِنَ الحقِّ؛ اقتربنا مِنَ الإيمانِ، وسنكونُ أبعدَ عَنْ حقيقةِ الإيمانِ، وأقربَ إلى الكفرِ بتلكَ النِّسبةِ الَّتي تميلُ بها أعمالُنا نحوَ الباطلِ، فإنَّ أساسيِّ الإيمانِ، والكفرِ هُما الحقُّ، والباطلُ.

3. سورة ص، الآية 27.

الآيـــــــــــــات 4 - 6

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (4) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6)﴾

التَّفسير:

يجبُ الحزمُ في ساحةِ الحربِ:

كما قُلنا سابقًا، فإنَّ الآياتِ السَّابقةَ كانتْ مُقدِّمةً لتهيئةِ المسلمينَ؛ مِنْ أجلِ إصدارِ أمرٍ حربيٍّ مُهمٍّ، ذُكرَ في الآياتِ موردِ البحثِ، فتقولُ الآيةُ: (فإذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كفرُوا فضربَ الرِّقابِ)[1].

مِنَ البديهيِّ أنَّ «ضربَ الرِّقابِ» كنايةٌ عَنِ القتلِ؛ وعلى هذا فلا ضرورةَ لأنْ يبذلَ المقاتلونَ قُصارى جهدَهُم لأداءِ هذا الأمرِ بالخصوصِ؛ فإنَّ الهدفَ هوَ دحرُ العدوِّ، والقضاءُ عليهِ، ولمَّا كانَ ضربُ الرِّقابِ أوضحَ مصداقٍ لهُ؛ فقد أكَّدتْ الآيةُ عليهِ.

وعلى أيَّةِ حالٍ، فإنَّ هذا الحكمَ مُرتبطٌ بساحةِ القتالِ؛ لأنَّ «لَقِيتُم» -مِنْ مادَّةِ اللِّقاءِ- تعني الحربَ، والقتالَ في مثلِ هذهِ الموارِدِ، وفي هذهِ الآيةِ نفسِها قرائنُ

1. «ضرب» مصدر مفعول لفعل مُقدَّر، والتَّقدير: اضربوا ضربَ الرِّقاب، كما صرَّحتِ الآيةُ (12) مِنْ سورة الأنفال بذلك إذ قالتْ: (فاضربوا فوق الأعناق).

عديـدةٌ تشهدُ لهـذا المعنى، كمسألةِ أسـرِ الأسرى، ولفظةِ الحـربِ، والشَّهادةِ في سبيلِ اللهِ، والَّتي وردتْ في ذيلِ الآيةِ.

وخُلاصـةُ القـول: إنَّ اللِّقـاءَ يُستعمـلُ -أحيانًـا- بمعنى اللِّقاءِ بـأيِّ شكلٍ كانَ، وأحيانًا بمعنى المُواجهـةِ، والمُجابهةِ في ميدانِ الحربِ، واستُعمِلَ في القرآنِ المجيدِ بكلا المعنيينِ، والآيةُ موردُ البحثِ ناظرةٌ إلى المعنى الثَّاني.

ومِـنْ هُنا يتَّضـحُ أنَّ أُولئكَ الَّذينَ حوَّرُوا هذهِ الآيةَ، وفسَّرُوهـا بأنَّ الإسلامَ يقولُ: حيثُمـا وجدتُم كافرًا فاقتلـوهُ؛ لم يريدُوا إلَّا الإسـاءةَ إلى الإسـلامِ، واتِّخاذُ الآيةِ بمعناهـا المُحرَّف حربةٌ ضدَّ الدِّينِ الحنيفِ، محاولةً مِنْهُم لتشويهِ صورةِ الإسلامِ النَّاصعةِ، وإلَّا فإنَّ الآيةَ صريحةٌ في اللِّقاءِ في ساحةِ الحربِ، وميدانِ القتالِ.

مِنَ البديهيِّ أنَّ الإنسانَ إذا واجهَ عدوًّا شرسًا في ميدانِ القتالِ، ولم يُقابلْهُ بحزمٍ، ولم يكلْ لهُ الضَّرباتِ القاصمةَ، ولم يُذقْهُ حرَّ سيفِهِ ليُهلِكَهُ؛ فإنَّهُ هو الَّذي سيهلكُ، وهذا القانونُ منطقيٌّ تمامًا.

ثُمَّ تُضيف الآيةُ: (حتَّى إذا أَثْخَنْتُمُوْهُم فشُدُّوا الوَثَاقَ).

«أَثْخَنْتُمُوْهُم» مِنْ مادَّةِ ثَخَنَ، بمعنى الغِلظةِ، والصَّلابةِ؛ ولهذا تُطلقُ على النَّصرِ، والغَلَبَةِ الواضحةِ، والسَّيطرةِ الكاملةِ على العدوِّ.

وبالرَّغمِ مِنْ أنَّ أغلبَ المُفسِّرينَ فسَّرُوا هذهِ الجملةَ بكثرةِ القتلِ في العدوِّ، وشدَّتِه؛ إلَّا أنَّ هذا المعنى لا يوجدُ في أصلِهَا اللُّغويِّ، كما قُلنا، ولكنْ لَمَّا كانَ دفعُ خطرِ العدوِّ

غيرَ مُمكنٍ أحيانًا إلَّا بكثرةِ القتلِ فيهِ؛ فيمكنُ أنْ تكونَ مسألةُ القتلِ أحدَ مصاديقِ هذهِ الجملةِ في مثلِ هذهِ الظُّروفِ، لا أنَّها معناها الأصليُّ[2].

وعلى كُلِّ حالٍ؛ فإنَّ الآيةَ المذكورةَ تُبيِّنُ تعليمًا عسكريًّا دقيقًا، وهو أنَّهُ يجبُ أنْ لا يُقْدَمُ على أسرِ الأسرى قبلَ تحطيمِ صفوفِ العدوِّ، والقضاءِ على آخرِ حصنٍ لمقاومتِهِ؛ لأنَّ الإقدامَ على الأسرِ قد يكونُ سببًا في تزلزُلِ وضعِ المسلمينَ في الحربِ، وسيعوقُ المسلمينَ الاهتمامُ بأمرِ الأسرى، ونقلُهم إلى خلفِ الجبهاتِ، عَنْ أداءِ واجبِهِم الأساسيِّ. وعبارةُ (فشُدُّوا الوَثَاقَ)، وبملاحظةِ أنَّ الوَثَاقَ هوَ الحبلُ، أو كُلُّ ما يُربَطُ بهِ؛ تُشيرُ إلى إتقانِ العملِ في شدِّ وَثَاقِ الأسرى، لئلَّا يستغلَ الأسيرُ فرصةً يفرُّ فيها؛ ثُمَّ يوجِّهُ ضربةً إلى الإسلامِ، والمسلمينَ.

وتُبيِّنُ الجملةُ التَّاليةُ حُكمَ أسرى الحربِ، الَّذي يجبُ أنْ يُقامَ بحقِّهم بعدَ انتهاءِ الحربِ؛ فتقولُ: (فإمَّا مَنًّا بعدُ وإمَّا فداءً)؛ وعلى هذا لا يمكنُ قتلُ الأسيرِ الحربيِّ بعدَ انتهاءِ الحربِ، بل إنَّ وليَّ أمرِ المسلمينَ -طبقًا للمصلحةِ الَّتي يراها- يطلقُ سراحَهُم مُقابلَ عوضٍ أحيانًا، وبلا عوضٍ أحيانًا أخرى، وهذا العوضُ -في الحقيقةِ- نوعٌ مِنَ الغرامةِ الحربيَّةِ الَّتي يجبُ أن يدفعَهَا العدوُّ.

يوجدُ طبعًا حكمٌ ثالثٌ في الإسلامِ فيما يتعلَّقُ بهذا الموضوعِ، وهوَ استعبادُ الأسرى، إلَّا أنَّهُ ليسَ أمرًا واجبًا؛ بلْ هوَ راجعٌ إلى وليِّ أمرِ المسلمينَ، يُنفِّذُهُ عِنْدَمَا يراهُ ضرورةً، في ظروفٍ خاصَّةٍ، ولعلَّهُ لم يردْ في القرآنِ بصراحةٍ لهذا السَّببِ، بلْ بيَّنَتْهُ الرِّواياتُ الإسلاميَّةُ فقطْ.

2. ينقل صاحب لسان العرب عَنِ ابن الأعرابي أنَّ: أثخن: إذا غلب وقهر.

يقـولُ فقيهُنا المعروفُ «الفاضـلُ المقدادُ» في «كنزِ العرفانِ»: إنَّ ما رُوِيَ عَنْ مذهبِ أهلِ البيتِ(ع) أنَّ الأسيرَ لو أُسِرَ بعدَ انتهاءِ الحربِ؛ فإنَّ إمامَ المسلمينَ مُخيَّرٌ بينَ ثـلاثٍ: إمَّا إطلاقـهُ دونَ شرطٍ، أو تحريرهُ مقابلَ أخذِ الفديـةِ، أو جعلهُ عبدًا، ولا يجوزُ قتلُهُ بأيِّ وجهٍ. ويقولُ في موضعٍ آخرَ مِنْ كلامهِ: إنَّ مسألةَ الرِّقِّ استُفيدتْ مِنَ الرِّواياتِ، لا مِنْ متنِ الآيةِ[3].

وقد وردتْ هذهِ المسألةُ في سائرِ الكتبِ الفقهيَّةِ أيضًا[4].

وسنُشيرُ إلى هذا المطلبِ في بحثِ الرِّقِّ، الَّذي سيأتي في ذيلِ هذهِ الآياتِ.

ثُمَّ تُضيفُ الآيةُ بعدَ ذلكَ: (حتَّى تضعَ الحربُ أوزارَهَا)[5]؛ فلا تكفُّوا عَنِ القتالِ حتَّى تُحطِّمُوا قِوى العدوِّ، ويُصبحَ عاجزًا عَنْ مواجهتِكُم، وعِنْدَهَا سيخمدُ لهيبُ الحربِ.

«الأوزارُ» جمعُ وِزْرٍ، وهو الحِمْلُ الثَّقيلُ، ويُطلقُ أحيانًا على المعاصي؛ لأنَّها تُثقلُ كاهلَ صاحبِهَا. والطَّريفُ أنَّ هذهِ الأوزارَ نُسِبَتْ إلى الحربِ في الآيةِ؛ إذ تقولُ: (حتَّى تضعَ الحربُ أوزارَهَا)، وهذهِ الأحمـالُ الثَّقيلةُ كنايةٌ عَنْ أنواعِ الأسلحةِ، والمشاكلِ المُلقاةِ على عاتقِ المقاتلينَ، و الَّتي يواجهونَهَا، وهي بعُهدتِهم ما كانتِ الحربُ قائمةً.

لكنْ، متى تنتهي الحربُ بينَ الإسلامِ، والكفرِ؟

سؤالٌ أجابَ عَنْهُ المُفسِّرونَ إجاباتٍ مختلفةً:

3. كنز العرفان، المجلَّد 1، صفحة 365.
4. الشرائع، كتاب الجهاد. شرح اللُّمعة، أحكام الغنيمة.
5. «حتَّى» غاية ل-(فضرب الرِّقاب). واحتملت احتمالات أُخرى لا تستحقُّ الاهتمام.

فالبعضُ -كابنِ عبَّاسٍ- قالَ: حتَّى لا تبقى وثنيَّةٌ على وجهِ البسيطةِ، وحتَّى يُقتلعَ دينُ الشِّركِ، وتُجتثَّ جذورُهُ.

وقالَ البعضُ الآخرُ: إنَّ الحربَ بينَ الإسلامِ والكفرِ قائمةٌ حتَّى ينتصرَ المسلمونَ على الدَّجالِ، وهذا القولُ يستندُ إلى حديثٍ رُوِيَ عَنِ الرَّسولِ الأكرمِ(ص) أنَّهُ قالَ: «والجهادُ ماضٍ مُذْ بعثني اللّٰهُ إلى أنْ يقاتلَ آخرُ أمَّتي الدَّجالَ»[6].

البحثُ حولَ «الدَّجَّالِ» بحثٌ واسعٌ، لكنَّ القدرَ المعلومَ أنَّ الدَّجَّالَ رجلٌ خدَّاعٌ، أو رجالٌ خدَّاعونَ، ينشطونَ في آخرِ الزَّمانِ مِنْ أجلِ إضلالِ النَّاسِ عَنْ أصلِ التَّوحيدِ، والحقِّ، والعدالةِ، وسيقضي عليهم المهديُّ(عج) بقدرتِهِ العظيمةِ، وعلى هذا فإنَّ الحربَ قائمةٌ بينَ الحقِّ، والباطلِ ما عاشَ الدَّجَّالونَ على وجهِ الأرضِ.

إنَّ للإسلامَ نوعينِ مِنَ المُحاربةِ معَ الكفرِ: أحدُهُما الحروبُ المرحليَّةُ كالغزواتِ الَّتي غزاها النَّبيُّ(ص)؛ حيثُ كانتِ السُّيوفُ تُغمدُ بعدَ انتهاءِ كُلِّ غزوةٍ. والآخرُ هوَ الحربُ المُستمرَّةُ ضدَّ الشِّركِ، والكفرِ، والظُّلمِ، والفسادِ، وهذا النَّوعُ مُستمرٌّ حتَّى زمنِ اتِّساعِ حكومةِ العدلِ العالميَّةِ، وظهورِها على الأرضِ جميعًا على يدِ المهديِّ(عج).

ثُمَّ تُضيفُ الآيةُ: (ذلك ولو يشاءُ اللّٰهُ لانتصرَ مِنْهُم)[7] بالصَّواعقِ السَّماويَّةِ، والزَّلازلِ، والعواصفِ، والابتلاءاتِ الأُخرى، لكنَّ بابَ الاختبارِ، وميدانَهُ سيُغلقُ في هذهِ الصُّورةِ: (ولكنْ ليبلوَ بعضَكُم ببعضٍ).

6. مجمع البيان، المجلَّد 9، صفحة 98.
7. «ذلك» خبر لمبتدأ محذوف، والتَّقدير: الأمر كذلك.

هـذهِ المسألةُ هيَ فلسفةُ الحربِ، والنُّكتـةُ الأساسيَّةُ في صراعِ الحقِّ والباطلِ، ففي هـذهِ الحـروبِ ستتميَّزُ صفـوفُ المؤمنينَ الحقيقيِّـينَ، والعاملينَ مِنْ أجـلِ دينِهم عَـنِ المُتكلِّمينَ في المجالسِ، المُتخاذلـينَ في ساعةِ العُسرةِ، وبذلـكَ ستتفتَّحُ براعمُ الاستعـداداتِ، وتحيا قـوَّةُ الاستقامةِ، والرجولةِ، ويتحقَّقُ الهـدفُ الأصليُّ للحياةِ الدُّنيا، وهوَ الابتلاءُ، وتنميةُ قوّةِ الإيمانِ، والقيمِ الإنسانيَّةِ الأُخرى.

إذا كانَ المؤمنـونَ يتقوقعونَ على ذواتِهم، وينشغلـونَ بالحياةِ اليوميَّةِ الرَّتيبةِ، وفي كُلِّ مرَّةٍ تطغى فيها جماعةٌ مِنَ المُشركينَ، والظَّالمينَ يدحضُهُم اللهُ سُبحانَهُ بالقوى الغيبيَّـةِ، ويُدمِّرُهـم بالطُّرقِ الإعجازيَّـةِ، فإنَّ المجتمـعَ سيكونُ خامـلاً، ضعيفًا، عاجزًا، ليسَ لهُ مِنَ الإسلامِ، والإيمانِ إلَّا اسمُهُ.

وخُلاصةُ القول: إنَّ اللهَ سُبحانَهُ غنيٌّ عَنْ سعينَا، وجهادِنَا مِنْ أجلِ تثبيتِ دعائمِ دينِـهِ، بلْ نحنُ الَّذينَ نتربَّى في ميدانِ جهادِ الأعداءِ، ونحنُ الَّذينَ نحتاجُ إلى هذا الجهادِ المُقدَّسِ. وقدْ ذُكِرَ هذا المعنى في آياتِ القرآنِ الأُخرى بصيغٍ أُخرى؛ فنقرأُ في الآيـةِ (142) مِنْ سورةِ آلِ عمرانَ: (أم حسبتُـم أنْ تدخلُوا الجنَّةَ ولمَّا يعلمِ اللهُ الَّذينَ جاهدُوا مِنْكُم ويعلمَ الصَّابرينَ).

وجاءَ في الآيةِ الَّتي سبقتْهَا: (وليمحِصَّ اللهُ الَّذينَ آمنوا ويمحقَ الكافرينَ).

وتحدَّثتْ آخرُ جملةٍ مِنَ الآيةِ موردِ البحثِ عَنِ الشُّهداءِ الَّذينَ قدَّمُوا أرواحَهُم هديةً لدينِهم في هذهِ الحروبِ، ولهم فضلٌ كبيرٌ على المجتمعِ الإسلاميِّ؛ فقالتْ: (والَّذينَ قُتِلُوا في سبيلِ اللهِ فلنْ يُضِلَّ أعمالَهُم).

فلـنْ تذهبَ جهودُهُـم، وآلامُهُم، وتضحياتُهُـم سدًى، بلْ كُلُّهَا محفوظـةٌ عِنْدَ اللهِ سُبحانَـهُ؛ فستبقى آثارُ تضحياتهم في هذهِ الدُّنيا، وكُلُّ نداءِ (لا إلهَ إلَّا اللهُ) يطرقُ سمـعَ البشرِ، يُمثِّلُ ثمرةَ جهـودِ أُولئكَ الشُّهداءِ، وكُلُّ سجـدةٍ يسجدُهَا مُسلمٌ بينَ يدي اللهِ هيَ مِنْ بركاتِ تضحياتهم؛ فبمساعيهِم تَحطَّمتْ قيودُ المذلَّةِ، والعبوديَّةِ، وعزَّةُ المسلمينَ، ورفعتُهُم رهينةُ مَا بذلُوهُ مِنَ الأرواحِ، والتَّضحياتِ.

هذهِ هيَ إحدى مواهبِ اللهِ في شأنِ الشُّهداءِ.

وهُناكَ ثلاثُ مواهبَ أُخرى أُضيفتْ في الآياتِ التَّاليةِ:

تقولُ الآيةُ أوَّلاً: (سيهديهم) إلى المقاماتِ السَّاميةِ، والفوزِ العظيمِ، ورضوانِ اللهِ تعالى. والأُخرى: (يصلـحُ بالَهُم) فيهبُهُم هدوءَ الـرُّوحِ، واطمئنانَ الخاطرِ، والنَّشاطَ المعنويَّ، والرُّوحـيَّ، والانسجامَ معَ صفاءِ ملائكـةِ اللهِ، ومعنوياتِهم؛ حيـثُ يجعلُهم جُلساءَهُم، ونُدماءَهُم في مجالسِ أُنسِهم، ولذَّتِهم، ويدعُوهُم إلى ضيافتِهِ في جوارِ رحمتِهِ.

والموهبةُ الأخيرةُ هيَ: (ويدخلُهُم الجنَّةَ عرَّفَهَا لَهُم).

قالَ بعضُ المُفسِّرينَ: أنَّهُ تعالى لم يُبيِّنْ لهم الصِّفاتِ الكليَّةَ للجنَّاتِ العُلى، وروضةِ الرِّضـوانِ وحسب؛ بلْ عـرَّفَ لهم صفاتِ قصورِهم في الجنَّـةِ، وعلاماتِها؛ بحيثُ أنَّهم عِنْدَمَا يَرِدُوْنَ الجنَّةَ؛ يتوجَّهُونَ إلى قصورِهم مُباشرةً[8].

وفسَّرَ البعضُ (عرَّفَهَا) بأنَّها مِنْ مادَّةِ «عرف» -على زِنَةِ فكر- وهوَ العِطرُ الطَّيِّبُ

8. مجمع البيان، المجلَّد 9، صفحة 98.

الرَّائحــةِ، أيْ إنَّ اللّه سُبحانَــهُ سيدخلُهُــم الجنَّــةَ الَّتــي عطَّرَهَا جميعًــا استقبالاً لضيوفِهِ إلَّا أنَّ التّفسيرَ الأوَّلَ يبدو هوَ الأنسب.

وقــالَ البعضُ: إذا ضمَمْنَا هذهِ الآياتِ إلى آيةِ: (ولا تحســبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا في سبيلِ اللّهِ أمواتًــا)[9]؛ سيتَّضحُ أنَّ المُرادَ مِــنْ إصلاحِ البالِ إحياؤُهُم حياةً يصلحونَ بها للحضورِ عِنْدَ ربِّهم بانكشافِ الغطاءِ[10].

بحـــــــــوث:

1 – مقام الشُّهداءِ السَّامي.

تمــرُّ في تأريــخِ الشُّعوبِ أيامٌ تُحدِقُ الأخطارُ فيها بتلــكَ الأممِ والشُّعوبِ، ولا يمكنُ دفعُ هــذهِ الأخطــارِ، والحفاظُ على الأهــدافِ المُقدَّسَــةِ العظيمــةِ إلَّا بالتَّضحيةِ، والفــداءِ، وتقديمِ القرابينِ الكثــيرةِ، وهُنا يجبُ أنْ يتوجَّهَ المؤمنــونَ المُضحُّونَ إلى ساحــاتِ القتــالِ، ليحفظُوا دينَ الحقِّ بسفــكِ دمائِهِم، ويُسمَّى هــؤلاءِ الأفرادُ في منطقِ الإسلامِ بـ «الشُّهداءِ».

إنَّ إطلاقَ كلمةِ الشَّهيدِ –مِنْ مادَّةِ الشُّهودِ– على هؤلاءِ، إمَّا لحضورِهم في ميدانِ الجهادِ ضــدَّ أعداءِ الحقِّ، أو لأنَّهم يشاهدونَ ملائكةَ الرَّحمــةِ لحظةَ شهادتِهِم، أو لمُشاهدتِهِم النِّعمَ العظيمةَ الَّتي أُعدَّتْ لهم، أو لحضورِهِم عِنْدَ اللّه، كما جاءَ في الآيةِ الشَّريفةِ: (ولا تحسبَنَّ الَّذينَ قُتِلُوا في سبيلِ اللّهِ أمواتًا بلْ أحياءٌ عِنْدَ ربِّهم يُرزقونَ)[11].

9. آل عمران، الآية 169.
10. الميزان، المجلَّد 18، صفحة 244.
11. آل عمران، الآية 169.

وقَلَّ مَنْ يصلُ إلى درجةِ الشَّهيدِ في الإسلامِ... أُولئكَ الشُّهداءِ الَّذينَ يذهبونَ إلى ساحـةِ الحربِ بينَ الحقِّ والباطلِ، عَنْ وعيٍ وخُلُوصِ نيَّةٍ، ويُقدِّمونَ آخرَ قطرةٍ مِنْ دمائِهِم الزَّكيَّةِ في هذا السَّبيلِ وتُلاحَظُ في المصادرِ الإسلاميَّةِ رواياتٌ عجيبةٌ حولَ مقـامِ الشُّهداءِ، تحكي عظمـةَ عملِهِم، وقيمتَهُ الفذَّةَ، فتقـرأُ في حديثٍ عَنْ رسولِ اللّهِ(ص): «إنَّ فوقَ كُلِّ برٍّ برًّا حتَّى يُقتلَ الرَّجلُ شهيدًا في سبيلِ اللّهِ»[12].

وجاءَ في حديثٍ آخرَ رُوِيَ عَنْهُ(ص): «المجاهدونَ في اللّهِ قُوَّادُ أهلِ الجنَّةِ»[13]. ونطالعُ في حديـثٍ آخرَ عَـنِ الإمامِ الباقرِ(ع): «ما مِنْ قطرةٍ أحـبُّ إلى اللّهِ مِنْ قطرةِ دمٍ في سبيلِ اللّهِ، أو قطرةٍ مِنْ دموعِ عينٍ في سوادِ اللَّيلِ مِنْ خشيةِ اللّهِ، وما مِنْ قدمٍ أحبُّ إلى اللّهِ مِنْ خطوةٍ إلى ذي رحمٍ، أو خطوةٍ يتمُّ بها زحفًا في سبيلِ اللّهِ»[14].

وإذا قلبنـا أوراقَ تأريخِ الإسلامِ؛ فسنرى الشُّهداءَ قـد سجَّلُوا القِسمَ الأعظمَ مِنَ الافتخاراتِ، وهم الَّذينَ قدَّمُوا القِسطَ الأوفرَ مِنَ الخدمةِ.

وليسَ هذا في الأمسِ فقطْ؛ فإنَّ ثقافـةَ الشَّهادةِ المصيريَّـةِ اليومَ تُرعبُ العـدوَّ أيضًا، وتُمـزِّقُ صفوفَـهُ، وتمنعُهُ مـنَ النُّفوذِ إلى حصـونِ الإسلامِ، وتزرعُ اليأسَ في نفسِهِ مِنْ إمكانِ تخطِّيها، فما أكثرَ بركةَ ثقافةِ الشَّهادةِ للمسلمينَ، وما أشدَّهَا على أعداءِ الدِّينِ.

لكنْ، لا شكَّ أنَّ الشَّهادةَ ليستْ هدفًا، بل الهدفُ هوَ الانتصارُ على العدوِّ، وحراسةُ ديـنِ اللّهِ، والحفـاظُ عليهِ، إلَّا أنَّ هؤلاءِ الحُرَّاسَ علـى دينِهِم يجبُ أنْ يكونوا على أُهبةِ الاستعدادِ، بحيثُ إذا إحتاجَ الحالُ بذلَ النُّفوسِ، والدِّماءِ؛ فإنَّهم لا يتأخَّرونَ

12. بحار الأنوار، المجلَّد 100، صفحة 15.
13. المصدر السَّابق.
14. بحار الأنوار، المجلَّد 100، صفحة 14.

عَـنْ بذلِهَا، بل يبــادرونَ إلى البذلِ، والتَّضحيةِ، والإيثارِ، وهذا هوَ معنى كونِ الأُمّةِ مُنجِبَةً للشُّهداءِ، لا أنَّهم يطلبونُ الشَّهادةَ كهدفٍ نهائيٍّ.

لهذا نقرأُ في نهايةِ حديثٍ مُفصَّلٍ رُوِيَ عَنْ أميرِ المؤمنينَ(ع) عَنْ رسولِ اللّهِ(ص) في شــأنِ مقــامِ الشُّهداءِ أنَّ النَّبيَّ(ص) أقسمَ وقالَ: «والَّذي نفســي بيدِهِ، لو كانَ الأنبيــاءُ في طريقِهِــم لترجَّلُوا لهم لما يرونَ مِــنْ بهائِهِم، ويشفــعُ الرَّجلُ مِنْهُم في سبعينَ ألفًا مِنْ أهلِ بيتِهِ، وجيرتِهِ». وهُناكَ نكتةٌ تستحقُّ الاهتمامَ، وهيَ أنَّ للشَّهادةِ في ثقافةِ الإسلامِ معنيَيْنِ مختلفينِ: معنًى «خاصٌّ»، وآخرُ «عامٌّ» واسعٌ.

أمَّــا الخاصُّ فهوَ القتلُ في سبيــلِ اللّهِ في معركةِ الجهادِ، ولــهُ أحكامُهُ الخاصَّةُ في الفقــهِ الإسلاميِّ، ومِــنْ جُملتِهَا أنَّ الشَّهيــدَ لا يُغسَّلُ، ولا يُكفَّنُ، بــل يُدفَنُ بثيابِهِ، ودمائِهِ إذا تُوُفِّيَ في ميدانِ المعركةِ!!

أمَّــا المعنــى العامُّ الواسعُ للشَّهادةِ، فهــوَ أنْ يُقتَلَ الإنسانُ في طريــقِ تأديةِ الواجبِ الإلهــيِّ؛ فــإنَّ كُلَّ مَنْ يرحلُ عَنِ الدُّنيا وهوَ في حالــةِ أداءِ هذا الواجبِ يُعدُّ شهيدًا؛ **ولذلكَ وردَ في الرِّواياتِ الإسلاميَّةِ أنَّ عِدَّةَ فئاتٍ يُغادرونَ الدُّنيا وهُم شُهداءُ:**

1 – رُوِيَ عَنْ نبيِّ الإسلامِ الأكرمِ(ص): «إذا جاءَ الموتُ طالبَ العلمِ، وهوَ على هذا الحالِ؛ ماتَ شهيدًا»[15].

2 – يقولُ أميرُ المؤمنينَ عليٌّ(ع): «مَنْ ماتَ على فراشِهِ، وهوَ على معرفةِ حقِّ ربِّهِ، وحقِّ رسولِهِ، وأهلِ بيتِهِ؛ ماتَ شهيدًا»[16].

15. سفينة البحار، المجلَّد الأول، مادة شهد.
16. نهج البلاغة، الخطبة 190، آخر الخطبة.

3 – نقرأُ في حديثٍ آخرَ عَنِ الإمامِ الصَّادقِ(ع): «مَنْ قُتِلَ دونَ مالِه؛ فهوَ شهيدٌ»[17].
وكذلكَ آخرونَ يُقتلونَ في طريقِ الحقِّ، أو يموتونَ فيه، ومِنْ هُنا تتَّضحُ عظمةُ ثقافةِ الإسلامِ هذه، ومدى سعتِهَا. ونُنهي هذا البحثَ بحديثٍ عَنِ الإمامِ عليٍّ بنِ موسى الرِّضا(ع)، عَنْ آبائِه، عَنْ رسولِ اللّه(ص): «أَوَّلُ مَنْ يدخلُ الجنَّةَ الشَّهيدُ»[18].

2 – أهدافُ القتالِ في الإسلام:

إنَّ القتالَ لا يُعتبرُ في الإسلامِ قيمةً مِنَ القيم، بل يُعتبرُ ضدَّ القيمِ مِنْ جهةِ كونِه باعثًا على الخرابِ، والتَّدميرِ، وإزهاقِ الأنفسِ، وإهدارِ القوى، والإمكانيَّاتِ الَّتي يمكنُ أنْ تُسخَّرَ لخدمةِ الإنسانِ، وسعادتِه، ورفاهِه؛ ولذلكَ جُعلَ في بعضِ الآياتِ القرآنيَّةِ في مصافِّ العقوباتِ الإلهيَّة؛ فنرى الآيةَ(65) مِنْ سورةِ الأنعامِ تقولُ: (قُلْ هوَ القادرُ على أنْ يبعثَ عليكم عذابًا مِنْ فوقِكُم ومِنْ تحتِ أرجلِكُم أو يلبسَكُم شيعًا ويذيقَ بعضَكُم بأسَ بعضٍ)، فقدِ اعتُبِرَ القتالُ هُنا بمثابةِ الصَّاعقةِ، والزَّلزلةِ، والابتلاءاتِ الأرضيَّةِ، والسَّماويَّة؛ ولذلكَ فإنَّ الإسلامَ يمتنعُ عَنِ القتالِ، والحربِ مَا استطاعَ إلى ذلكَ سبيلاً.

أمَّا إذا تعرَّضَ وجودُ الأُمَّةِ للخطرِ، أو أنَّ أهدافَهُ المُقدَّسةَ السَّاميةَ أصبحتْ مُهدَّدةً بالسُّقُوطِ؛ فإنَّ القتالَ هُنا يُعتبرُ قيمةً ساميةً، ويكتسبُ عنوانَ الجهادِ في سبيلِ اللّه؛ ولذلكَ توجدُ في الإسلامِ أنواعٌ مِنَ الجهاد: الجهادُ الابتدائيُّ، المُحرِّرُ للأُمم، والجهادُ الدِّفاعيُّ، والجهادُ مِنْ أجلِ إخمادِ نارِ الفتنةِ، والشِّركِ، والوثنيَّة، وقد أوردْنَا تفصيلَهَا في موضعٍ آخرَ[19].

17. سفينة البحار، المجلَّد الأول، مادة شهد.
18. بحار الأنوار، المجلَّد 71، صفحة 272.
19. التَّفسيرُ الأمثل، ذيل الآية 193 مِنْ سورة البقرة.

بنـاءً على هذا فإنّ الجهـادَ الإسلاميَّ على خلافِ ما يدَّعيه أعداءُ الإسلامِ مِنْ أنَّهُ يعني فرضَ العقيدةِ على الآخرينَ، بل إنَّ العقيدةَ المفروضةَ لا قيمةَ لها في الإسلامِ، لكـنَّ الجهـادَ يتعلَّقُ بالمـوارد الَّتي يشنُّ فيها العـدوُّ الحربَ ضدَّ الأُمَّـةِ الإسلاميَّةِ، أو عِنْدَمَـا يسلبُهَا الحُرِّياتِ الَّتـي منحَهَا اللهُ إيَّاها، أو أنَّهُ يريـدُ أنْ يُهدرَ حقوقَهَا، ويُصادرَهَـا، أو أنَّ ظالمًـا قد أخـذَ بأنفاسِ مظلوم؛ فيجبُ علـى المسلمينَ حينئذٍ أنْ يهبُّوا لنُصرةِ المظلومِ، حتَّى وإنْ أدَّى الأمرُ إلى قتالِ القومِ الظالمينَ.

وقد عكستِ الآياتُ السَّابقةُ هذا المعنى في عبارةٍ لطيفةٍ وجيزةٍ، حينما تقولُ: (ذلكَ بـأنَّ الَّذينَ كفروا اتَّبعُوا الباطلَ وأنَّ الَّذينَ آمنوا اتَّبعُوا الحقَّ مِنْ ربِّهم) وعلى هذا فـإنَّ الحربَ هي حربٌ بينَ الحقِّ، والباطلِ، لا أنَّهـا وسيلةٌ لتكوينِ الدَّولةِ، ومُحاولةُ توسيعِ رقعتِهَا، والإغارةُ على أموالِ الآخرينَ، والتَّسلُّطُ، وإعمالُ القوَّةِ، والإرهابُ.

ولهـذا السَّبـبِ -أيضًا- قرأنا في الرِّوايةِ الَّتي أوردناها في تفسيرِ هذهِ الآياتِ أنَّ نارَ الحربِ لنْ تخمدَ في المجتمعِ الإنسانيِّ إلَّا بعدَ القضاءِ على الدَّجَّالينَ، وتطهيرِ الأرضِ مِنْ دنسِهم. وهُنا نكتةٌ تستحقُّ الانتباهَ، وهي أنَّ الإسلامَ قد أكَّدَ على مسألةِ التَّعايُشِ السِّلميِّ معَ أتباعِ الأديانِ السَّماويَّةِ الأُخرى، وقد وردتْ في الآياتِ، والرِّواياتِ، والفقهِ الإسلامـيِّ بحوثٌ مفصَّلةٌ في هذا البابِ، تحتَ عنوانِ (أحكامُ أهلِ الذِّمَّةِ) فإذا كانَ الإسـلامُ يؤيِّدُ فرضَ العقيـدةِ، والإكراهِ عليهـا، ويتوسَّلُ بالقوَّةِ، والسَّيـفِ مِنْ أجلِ تحقيقِ أهدافِهِ، فأيُّ معنًى إذًا لقانونِ أهلِ الذِّمَّةِ، والتَّعايُشِ السِّلميِّ؟!

3 - أحكامُ أسرى الحربِ:

قُلنا: يجبُ على المسلمينَ أنْ لا يفكِّرُوا في أسرِ أفرادِ العدوِّ إلَّا بعدَ هزيمةِ العدوِّ الكاملةِ،

واندحارِه التَّامِّ؛ لأنَّ هذا التَّفكيرَ، والانشغالَ بالأسرى قد يتضمَّنُ أخطارًا جسيمةً.

غـيرَ أنَّ أُسلـوبَ الآياتِ -موردِ البحثِ- يدلُّ على وجوبِ الإقـدامِ على أسرِ أفرادِ العدوِّ بعـدَ هزيمتِه؛ فالآيةُ تقولُ: (فـإذا لَقِيْتُمُ الَّذينَ كفرُوا فضـربَ الرِّقابِ) ثُمَّ تُضيفُ: (حتَّى إذا أثخنتموهم فشدُّوا الوَثَاقَ)؛ وعلى هذا يجبُ أسرُهُم بدلَ قتلِهم، بعدَ الانتصارِ عليهم، وهوَ أمرٌ لابُدَّ مِنْهُ؛ لأنَّ العدوَّ إذا تُرِكَ وشأنَهُ؛ فَمِنَ الممكنِ أنْ يُنظِّـمَ قواهُ مرَّةً أُخرى؛ ليهجمَ على المسلمـينَ مِنْ جديدٍ؛ إلَّا أنَّ الحالَ يختلفُ بعدَ الأسـرِ، إذ يكونُ الأسيرُ أمانةً إلهيَّةً بيدِ المسلمينَ، رغمَ كُلِّ الجرائمِ الَّتي ارتكبها، ويجبُ أنْ تُراعى فيهِ حقوقٌ كثيرةٌ.

إنَّ القـرآنَ يمجدُ أولئـكَ الَّذينَ آثروا الأسـيرَ على أنفسِهم، وقدَّمـوا لهُ طعامَهُم، فيقولُ: (ويُطعمُـون الطَّعـامَ على حبِّهِ مسكينًـا ويتيمًا وأسيرًا) وهـذهِ الآيةُ -طِبقًا لروايةٍ معروفةٍ- نزلتْ في عليٍّ، وفاطمةَ، والحسنِ، والحسينِ(ع)، إذ كانوا صائمينَ، وأعطَـوا إفطارَهُم لمسكينٍ مرَّةً، ولِيتيمٍ أُخـرى، ولأسيرٍ ثالثةً. وحتَّى الأسرى الَّذينَ يُقتلونَ بعدَ الحربِ استثناءً، إمَّا لكونِهم خَطِرينَ، أو لارتكابِهم جرائمَ خاصَّةً؛ فإنَّ الإسـلامَ أمرَ أنْ يُحسَنَ إليهم قبلَ تنفيذِ الحكـمِ بحقِّهِم، كما نرى ذلكَ في حديثٍ عَنْ عليٍّ(ع): «إطعامُ الأسيرِ، والإحسانُ إليهِ حقٌّ واجبٌ، وإنْ قتلتَهُ مِنَ الغدِ»[20].

والأحاديـثُ في هـذا البابِ كثـيرةٌ[21]، حتَّى أنَّـهُ وردَ في حديثٍ عَنِ الإمـامِ عليٍّ بنِ الحسينِ(ع) أنَّهُ قالَ: «إذا أخذتَ أسيرًا؛ فعجزَ عَنِ المشيِ، وليسَ معكَ محملٌ؛ فأرسِلْهُ

20. وسائل الشيعة، المجلَّد 11، صفحة 69.
21. يراجع فروع الكافي، المجلَّد 5، صفحة 35، باب الرفق بالأسير وإطعامه.

ولا تقتلْـهُ؛ فإنَّـكَ لا تدري ما حكمُ الإمام فيه»[22] بـلْ وردَ في التَّأريخ في أحوالِ أئمةِ أهلِ البيتِ(ع) أنَّهم كانوا يُطعمونَ الأسرى مِنَ الطَّعامِ نفسِهِ الَّذي كانوا يتناولونَهُ.

إلَّا أنَّ حكـمَ الأسيرِ -وكما قُلنا في تفسيرِ الآيـاتِ- بعدَ انتهاءِ الحربِ أحدُ ثلاثةٍ: إمَّـا إطـلاقُ سراحِهِ مِنْ دونِ قيدٍ أو شـرطٍ، أو إطلاقُ سراحِـهِ مُقابلَ دفعِ غرامةٍ ماليَّـةٍ هـي الفديةُ، أو استرقاقُـهُ، واختيارُ أحدِ هـذهِ الأُمورِ الثلاثـةِ منوطٌ بنظرِ إمـامِ المسلمينَ؛ فهوَ الَّذي يختارُ ما يراهُ الأصلحَ، بعدَ الأخذِ بنظرِ الاعتبارِ ظروفَ الأسـرى، ومصالحَ الإسـلامِ، والمسلمينَ مِنَ النَّاحيةِ الدَّاخليـةِ، والخارجيَّةِ، وبعدَ ذلكَ يأمرُ بتنفيذِ ما اختارَهُ.

بنـاءً على هـذا؛ فليسَ لأخـذِ الفديةِ، أو الاسترقـاقِ صفةُ الإلـزامِ، والوجوبِ، بلْ هُما تابعانِ للمصالـحِ الَّتي يراها إمامُ المسلمينَ؛ فإذا لم تكنْ فيهما مصلحةٌ؛ فلهُ أنْ يغضَّ النَّظرَ عَنْهُمَا، ويطلقَ سراحَ الأسرى دونَ طلـبِ الفديةِ. وقد بحثْنَا حولَ فلسفةِ أخذِ الفديةِ بصورةٍ مُفصَّلةٍ لدى تفسيرِ الآيةِ 70 مِنْ سورةِ الأنفالِ.

4 - الرقُّ في الإسلام:

بالرُّغـمِ مِـنْ أنَّ مسألةَ «استرقاقِ أسرى الحربِ» لم تـردْ في القرآنِ المجيدِ كحكمٍ حتمـيٍّ؛ لكـنْ لا يمكنُ إنكارُ ورودِ أحكامٍ في القرآنِ فيمـا يتعلَّقُ بالعبيدِ، وهي تُثبتُ وجـودَ أصلِ الرِّقيَّةِ حتَّى في زمـانِ النَّبيِّ(ص)، وصدرِ الإسلامِ، كالأحكامِ المُتعلِّقةِ بالزَّواجِ مِنَ العبيدِ، أو كونِهم محرمًا، أو مسألةِ المُكاتبةِ(وهي اتِّفاقٌ يتحرَّرُ بموجبِهِ

22. المصدر السَّابق.

العبدُ بعدَ أدائِهِ مبلغًا مِنَ المالِ يُتَّفَقُ عليهِ)، وقدْ وردتْ هذهِ الأحكامُ في آياتٍ عديدةٍ مِنَ القرآنِ في سورةِ النِّساءِ، النَّحلِ، المؤمنونَ، النُّورِ، الرُّومِ، والأحزابِ.

وهُنا يعترضُ البعضُ على الإسلامِ بأنَّهُ: لماذا لم يُلغِ هذا الدِّينُ الإلهيُّ مسألةَ الرِّقِّ تمامًا، مع ما يحتويهِ مِنَ القيمِ الإنسانيَّةِ السَّاميةِ، ولم يعلنْ تحريرَ كُلِّ العبيدِ مِنْ خلالِ إصدارِ حكمٍ قطعيٍّ؟!

صحيحٌ أنَّ الإسلامَ أوصى كثيرًا بالرَّقيقِ، إلَّا أنَّ المهمَّ هو تحريرُهُم بدونِ قيدِ شرطٍ، فلماذا يكونُ الإنسانُ مملوكًا لإنسانٍ آخرَ مثلِهِ، ويفقدُ الحُريَّةَ الَّتي هي أعظمُ عطايا اللهِ سُبحانَهُ؟!

الجوابُ:

يجبُ القولُ في جملةٍ مُوجزةٍ: إنَّ للإسلامِ برنامجًا دقيقًا مدروسًا لتحريرِ العبيدِ، تؤدِّي نهايتُهُ إلى تحريرِ جميعِ العبيدِ تدريجيًّا، دونَ أنْ يكونَ لهذهِ الحُريَّةِ ردُّ فعلٍ سلبيٍّ في المجتمعِ.

وقبلَ أنْ نتناولَ توضيحَ هذهِ الخُطَّةِ الإسلاميَّةِ الدَّقيقةِ؛ نرى لِزامًا ذِكْرُ عدَّةِ نُقاطٍ كمقدِّمةٍ:

1 - الإسلامُ لم يكنِ المُبتدعَ للرقِّ مُطلقًا، بلْ إنَّهُ لمَّا ظهرَ كانتْ مسألةُ العبوديَّةِ والرَّقيقِ قد عمَّتْ أرجاءَ العالمِ، وكانتْ معجونةً بظلامِ المجتمعاتِ البشريَّةِ، وبوجودِها، بلْ استمرتْ مسألةُ الرَّقيقِ في كُلِّ المجتمعاتِ حتَّى بعدَ الإسلامِ أيضًا، وبقيتْ مستمرَّةً حتَّى قبلَ مائةِ عامٍ؛ حيثُ بدأتْ ثورةُ تحريرِ الرَّقيقِ، فلم تعدْ مسألةُ الرَّقيقِ مقبولةً بشكلِهَا القديمِ؛ نتيجةَ اختلافِ نظامِ حياةِ البشرِ، وتغيُّرِهِ عمَّا كانَ عليهِ.

إنَّ إلغاءَ العبوديَّةِ بدأَ مِنْ أُوروبَّا؛ ثُمَّ اتَّسعَ في سائرِ الدُّول، ومِنْ جُملتِهَا أمريكا، وآسيا.

لقدِ استمرَّ الرِّقُّ في إنجلترا حتَّى سنة 1840، وفي فرنسا حتَّى سنة 1848، وفي هولنـدا إلى سنة 1863، وفي أمريـكا إلى سنة 1865، ثُمَّ عُقِدَ مؤتمرُ بروكسل؛ فأصـدرَ قرارًا بإلغاءِ الـرِّقِّ في أنحاءِ العالمِ، وكانَ ذلكَ سنةَ 1890، أيْ قبلَ أقلَّ مِنْ مائةِ عامٍ.

2 – تغيـيرُ شكلِ الرِّقِّ في دُنيا اليوم: صحيحٌ أنَّ الغربيِّينَ كانوا قدْ سبقوا إلى إلغاءِ الـرِّقِّ، إلَّا أنَّنـا عِنْدَمَـا نُحقِّقُ في المسألةِ بدقَّـة؛ نرى أنَّ الرِّقَّ لم تُقتلَـعْ جذورُهُ، بلْ إنَّـهُ تحوَّرَ مِنْ حالـةٍ إلى أُخرى، أخطرَ، وأكـثرَ رُعبًا، أيْ إنَّهُ اتَّخـذَ شكلَ استعمارِ الشُّعُوبِ، واسترقاقِ المُستعمَرَاتِ، بحيثُ كُلَّمَا ضعفَ الرِّقُّ الفرديُّ؛ قَوِيَ الاسترقاقُ الجماعـيُّ والاستعمارُ؛ فإنَّ الإمبراطوريَّةَ البريطانيَّـةَ الَّتِي كانتْ سبَّاقةً إلى إلغاءِ الرِّقِّ، تُعتبرُ السَّبَّاقةَ أيضًا في استعمارِ الشُّعُوبِ.

إنَّ الجرائمَ الَّتِي ارتكبها المستعمرون الغربيون طوال مدة استعمارهم لم تكن أقل مِنْ جرائم مرحلة العبودية، بل كانت أوسعَ وأشدَّ إجرامًا.

وحتَّى بعدَ تحرُّرِ المُستعمَرَاتِ، فإنَّ استعبادَ الأُمم قدِ استمرَّ، لأنَّ هذهِ الحُريَّةَ كانتْ حريَّـةً سياسيَّةً، أمَّا الاستعمارُ الاقتصاديُّ، والثَّقـافيُّ فمايزالُ حاكمًا في كثيرٍ مِنَ المُستعمَرَاتِ الَّتِي نالتْ حريَّتَها، وغيرِهَا.

وأمَّـا الدُّولُ الشُّيوعيَّةُ الَّتِي نادتْ قبـلَ الجميعِ بإلغاءِ العبوديَّةِ، واتَّخذتْهَا ذريعةً في ثورتِهَا؛ فإنَّها بالذَّاتِ مُبتلاةٌ بنوعٍ مِنَ الاسترقاقِ العامِّ الَّذي يندى لهُ الجبينُ؛ فإنَّ الشُّعُـوبَ الَّتِـي تعيشُ في ظلِّ هذهِ الدُّولِ تكونُ كالعبيـدِ تمامًا لا يملكونَ مِنْ أمرِهم

شيئًـا، ويُعيِّنُ أعضاءُ الحـزبِ الشُّيوعيُّ كُلَّ مقدَّراتِهم وما يتعلَّـقُ بشؤونِ حياتِهم، وإذا مـا أبدى أحدٌ وجهةَ نظرٍ مُخالفـةٍ؛ فإمَّا أنْ يُرسـلُ إلى المُخيَّماتِ الإجباريَّةِ، أو يُلقـى في دهاليزِ السُّجـونِ، وإذا كانَ مِنَ العلماءِ؛ فإنَّـهُ يُبعثُ إلى دارِ المجانينِ، باعتبارِهِ مُختلَّ العقلِ، ومُصابًا بمرضٍ نفسيٍّ، وعصبيٍّ.

والخُلاصةُ: إنَّ الرِّقَّ لا يتبعُ الاسمَ، فإنَّ القبيحَ، والمرفوضَ هو محتوى الرِّقِّ، ونحنُ نعلمُ أنَّ مفهومَ الرِّقِّ قائمٌ في الدُّولِ الاستعماريَّةِ، والدُّولِ الشُّيوعيَّةِ بأسوأِ أشكالِهِ.

والنَّتيجـةُ: إنَّ إلغـاءَ الرِّقِّ في العالمِ كانَ صوريًّا، ولم يكـنْ في الحقيقةِ إلَّا تبديلاً للصورةِ، والشَّكلِ الظَّاهريِّ.

3 - مصـيرُ الرَّقيـقِ المـؤلمُ في الماضي؛ فقـد كانَ للرَّقيقِ على مـرِّ التَّاريخِ مصيرٌ مـؤلمٌ جدًّا. ولنأخـذْ على سبيلِ المثالِ عبيدَ الرُّومـانِ -باعتبارِهم قومًا متمدِّنينَ- كنموذجٍ، فإنَّهم -على حدِّ قولِ كاتبِ «روحُ القوانينِ»- كانوا تُعساءَ بحيثُ لم يكونوا عبيـدًا لفردٍ، وإنَّما كانوا يُعتبرونَ عبيدًا لكُلِّ المجتمعِ، وكانَ باستطاعةِ كُلِّ شخصٍ أنْ يعذِّبَ عبدَهُ، ويؤذيَهُ كما يحلو لهُ، دونَ خوفٍ مِنَ القانونِ. لقد كانتْ حياةُ أُولئكَ أسـوأَ مِنْ حياةِ الحيواناتِ في الواقعِ. لقد كانَ الكثيرُ مِنَ الرَّقيقِ يموتونَ في الفترةِ بـينَ اصطيادِهم مِنَ المُستعمَرَاتِ الأفريقيَّةِ، وحتَّى عرضِهم في الأسواقِ للبيعِ، وما تبقَّى مِنْهُم كانَ يُتَّخذُ وسيلةً للاستغلالِ في العملِ.

وكانَ تجَّـارُ العبيدِ الطَّامعونَ لا يُعطونَهُم مِنَ الغذاءِ إلَّا ما يُبقيهِم أحياءَ، وقادرينَ علـى العملِ. أمَّا عِنْـدَ كِبرِهم، وعجزِهـم، وابتلائِهم بأمراضٍ يصعبُ علاجُهَا؛

فإنَّهـم كانوا يتركونَهُم وشأنَهُم؛ ليُسلمُوا الرُّوحَ بشكلٍ أليمٍ. ولذلكَ كانَ اسمُ الرِّقِّ يقترنُ بسيلٍ مِنَ الجرائمِ المُرعبةِ على مرِّ التَّاريخِ.

وباتِّضـاحِ هـذهِ النُّـكاتِ؛ نعـودُ إلى خُطَّـةِ الإسلامِ في تحريـرِهِ العبيـدَ تدريجيًّا، ونتناولُها بصورةٍ مُختصرَةٍ.

4 – خُطَّـةُ الإسلامِ لتحريرِ العبيدِ: إنَّ ما يُغفَلُ عَنْهُ غالبًا هوَ أنَّ ظاهرةً سلبيَّةً إذا مـا توغَّلَـتْ في مفاصلِ المجتمعِ؛ فهنـاكَ حاجةٌ إلى فترةٍ زمنيَّـةٍ لاقتلاعِ جذورِهَا، ولكُلِّ حركةٍ غيرِ مدروسةٍ ردُّ فعلٍ سلبيٍّ، تمامًا كما إذا ابْتُلِيَ إنسانٌ بمرضٍ خطيرٍ، وقـدِ استفحـلَ هذا المرضُ في بدنِهِ، أو مَنِ اعتـادَ على تناولِ المُخـدِّراتِ لعشراتِ السِّنـينَ؛ حتَّى تطبَّعَ على هذهِ الطَّبيعةِ المُستهجنةِ؛ ففي هذهِ الموارِدِ يجبُ الاعتمادُ على برامجَ زمنيَّةٍ لعلاجِهِ، قد تطولُ، وقد تقصُرُ. ونقولُ بأسلوبٍ أكثرَ صراحةً: لو أنَّ الإسـلامَ كانَ قد أصدرَ أمـرًا عامًّا بتحريرِ كُلِّ العبيدِ؛ فربَّما كانَ الضَّررُ أكثرَ، وقد يهلكُ مِنْهُم عددٌ أكثرُ، لأنَّ الرَّقيقَ كانوا يُشكِّلونَ نصفَ المجتمعِ أحيانًا، وليسَ لهم عملٌ مُستقِلٌّ يتكسَّبونَ بهِ، ولا دارٌ أو ملجأٌ، أو وسيلةٌ ما لإدامةِ الحياةِ.

إنَّ هـؤلاءِ لـو تحرَّرُوا في ساعـةٍ مُعيَّنةٍ مِنْ يومٍ مُعـيَّنٍ؛ فستظهرُ علـى السَّاحةِ فجأةً جماعـةٌ عظيمةٌ عاطلةٌ عَنِ العملِ؛ و عِنْدَهَا ستكـونُ حياتُهم مُهدَّدةً، وربَّما أدَّى إلى إرباكِ نظامِ المجتمعِ، وعِنْدَمَا يُلِحُّ عليهِ الحرمانُ؛ فسيجدُ نفسَهُ مُضطرًّا إلى الهجومِ على ممتلكاتِ الآخرينَ؛ فتنشبُ الصِّراعاتُ، والاشتباكاتُ، ويكونُ نزفُ الدِّماءِ.

مِنْ هُنا ندركُ الغايةَ مِنَ التَّحريرِ التَّدريجيِّ؛ وذلكَ ليستوعبَهُم المجتمعُ، ولا يشمئزَّ

مِنْهُـم، وحينئذٍ سوفَ لا تتعرَّضُ أرواحُهُم للخطرِ، كما لا يتهدَّدُ أمنُ المجتمعِ، وقد اتَّبعَ الإسلامُ هذا البرنامجَ الدَّقيقَ تمامًا.

إنَّ تطبيـقَ، وترجمةَ هـذا البرنامجِ الإنسانيِّ على أرضِ الواقـعِ العمليِّ، لهُ قواعدُ كثـيرةٌ، نذكرُ هُنا رؤوسَ نقاطِهَا بصورةٍ مُوجزةٍ، وكفهرسٍ، أمَّا تفصيلُهَا؛ فيحتاجُ إلى كتابٍ مُستقلٍّ:

المادَّةُ الأُولى: غلقُ مصادرِ الرِّقِّ:

لقد كانَ للرِّقِّ على طولِ التَّاريخِ أسبابٌ كثيرةٌ، فلم يقتصرِ الاستعبادُ على أسرى الحربِ، والمَدِيْنِيِّنَ الَّذينَ يعجزونَ عَنْ أداءِ ديونِهم؛ حيثُ كانتِ القوَّةُ، والغلبةُ تُبيحُ الاسترقاقَ، والاستعبـادَ، بلْ إنَّ الدَّولةَ القويَّةَ كانتْ تُرسـلُ فِرقًا مِنْ جيوشِهَا، وهم مُدجَّجُونَ بأنواعِ الأسلحـةِ إلى الدُّولِ الأفريقيَّـةِ المُتخلِّفَةِ وأمثالِها، ليأسرُوا شعـوبَ تلكَ الدُّولِ جماعاتٍ جماعاتٍ، ثُمَّ يرسلونَهُم بوساطةِ السُّفنِ إلى أسواقِ بلدانِ آسيا، وأوروبَّا.

لقـدَ منعَ الإسلامُ كُلَّ هذهِ المسائلِ، ووقفَ حائـلاً دونَهَا، ولم يُبِحِ الاسترقاقَ إلَّا في موردٍ واحدٍ، وهوَ أسرى الحربِ، وحتَّى هذا لم يكنْ يتَّصفُ بالوجوبِ، والإلزامِ، بلْ إنَّ الإسلامَ قدْ أجازَ -وكما قُلنا في تفسيرِ الآياتِ المذكورةِ- إطلاقَ سراحِ الأسرى مُقابلَ فديةٍ يؤدُّونَهَا تبعًا لمصلحةِ الإسلامِ، والمسلمينَ.

ولم تكـنْ في تلـكَ الأيامِ سجونٌ يُسجـنُ فيها أسرى الحربِ؛ حتَّـى يَتَبَيَّنَ وضعُهُم، ومـاذا يجـبُ فعلُهُ معهـم، بـلْ كانَ الطَّريقُ الوحيـدُ هـوَ تقسيمَهُم بـينَ العوائلِ، والاحتفاظَ بهم كرقيقٍ.

مِنَ البديهيِّ أنَّ هذهِ الظروفَ إذا تغيَّرتْ؛ فلا دليلَ على أنَّ إمامَ المسلمينَ مُلزمٌ بأنْ يرضى برقِّ الأسرى؛ بلْ هوَ قادرٌ على تحريرِهم، إمَّا منًّا، أو فداءً، لأنَّ الإسلامَ خيَّرَ إمامَ المسلمينَ في هذا الأمرِ؛ كي يُقْدِمَ على اختيارِ الأصلحِ مِنْ خلالِ مراعاةِ المصلحةِ؛ وبهذا فإنَّ مصادرَ الرِّقِّ الجديدةِ قدْ أُغلقتْ في الإسلامِ.

المادَّةُ الثَّانيةُ: فتحُ نافذةِ الحُريَّة:

لقدْ وضعَ الإسلامُ برنامجًا واسعًا لتحريرِ العبيدِ؛ بحيثُ أنَّ المسلمينَ لو عملوا بموجبِهِ؛ فإنَّ كُلَّ العبيدِ كانوا سيتحرَّرُونَ في مُدَّةٍ وجيزةٍ، وبصورةٍ تدريجيَّةٍ، وكانَ المجتمعُ سيستوعبُهُم، ويُؤمِّنُ لهم ما يحتاجونَهُ مِنَ اللَّوازمِ الحياتيَّةِ، مِنْ عملٍ، ومسكنٍ، وغيرِ ذلكَ.

وإليكَ رؤوسُ نقاطِ هذا البرنامجِ:

أ - إنَّ أحدَ الموارِدِ الثَّمانيةِ لصرفِ الزَّكاةِ في الإسلامِ شراءُ العبيدِ، وعتقُهُم[23]، وبهذا فقدْ خُصِّصَتْ ميزانيَّةٌ دائميَّةٌ في بيتِ المالِ لتنفيذِ هذا الأمرِ، وهي مستمرَّةٌ حتَّى إعتاقِ العبيدِ جميعًا.

ب - ولتكميلِ هذا المطلبِ؛ وضعَ الإسلامُ أحكامًا يستطيعُ العبيدُ مِنْ خلالِها أنْ يعقدُوا اتِّفاقياتٍ مع مالكِيْهِم، على أنْ يؤدُّوا إليهم مبلغًا مِنَ المالِ يُتَّفَقُ عليهِ مُقابلَ الحصولِ على حريَّتِهِم. وقدْ جاءَ في الفقهِ الإسلاميِّ فصلٌ في هذا البابِ تحتَ عنوانِ المُكاتبةِ[24].

23. التَّوبة، الآية 60.
24. كان لنا بحث مفصَّل حول المكاتبة وأحكامها الرَّائعة في ذيل الآية (34) مِنْ سورة النُّور.

ج – إنَّ عتـقَ العبيـدِ يُعتبرُ أحدَ أهـمِّ العباداتِ، والأعمالِ الصَّالحـةِ في الإسلامِ، وقـدْ كانَ أئمَّةُ أهلِ البيتِ(ع) مِنَ السَّابقينَ في هذا المضمارِ، حتَّى كتبوا في أحوالِ عليٍّ(ع) أنَّهُ أعتقَ ألفَ مملوكٍ مِنْ كَدِّ يدِهِ[25].

د – لقدْ كانَ أئمَّةُ أهلِ البيتِ(ع) يُعتقونَ العبيدَ لأدنى عذرٍ؛ ليكونُوا قدوةً للآخرينَ؛ حتَّى أنَّ أحدَ غلمانِ الإمامِ الباقرِ(ع) عَمِلَ عملاً صالحًا؛ فقالَ لهُ الإمامُ: «اذهبْ؛ فأنتَ حرٌّ؛ فإنِّي أكرهُ أنْ أستخدمَ رجلاً مِنْ أهلِ الجنَّةِ»[26].

وجـاءَ في أحوالِ الإمـامِ السَّجادِ عليِّ بنِ الحسينِ(ع)، أنَّ جاريةً كانتْ تسكبُ عليهِ المـاءَ؛ فسقـطَ الإبريقُ مِـنْ يدِهَا فشجَّهُ؛ فرفـعَ رأسَهُ إليهـا؛ فقالتْ: (والكاظمينَ الغيـظَ)؛ قالَ: «قدْ كظمـتُ غيظي» قالتْ: (والعافينَ عَنِ النَّاسِ)؛ قالَ: «عفا اللهُ عَنْكِ»؛ قالتْ: (واللهُ يحبُّ المُحسنينَ)؛ قالَ: «فاذهبي فأنتِ حرَّةٌ لوجهِ اللهِ»[27].

هـ – وردَ في بعضِ الرُّوايـاتِ الإسلاميَّةِ أنَّ العبيدَ يتحـرَّرُون تلقائيًّا بعدَ مرورِ سبعِ سنينَ؛ ففي روايةٍ عَنِ الإمامِ الصَّادقِ(ع): «مَنْ كانَ مؤمنًا؛ فقدْ عُتِقَ بعدَ سبعِ سنينَ، أعتقَهُ صاحبُهُ أمْ لم يعتقْهُ، ولا يحلُّ خدمةُ مَنْ كانَ مؤمنًا بعدَ سبعِ سنينَ»[28].

ورُوِيَ في هـذا البـابِ حديثٌ مِـنَ النَّبيِّ الأكرمِ(صـ)، أنَّهُ قالَ: «مـازالَ جبرئيلُ يوصيني بالمملوكِ؛ حتَّى ظننتُ أنَّهُ سيضربُ لهُ أجلاً يعتقُ فيهِ»[29].

25. بحار الأنوار، المجلَّد 41، صفحة 43.
26. الوسائل، المجلَّد 16، صفحة 32.
27. نور الثَّقلين، المجلَّد 1، ص 390.
28. وسائل الشِّيعة، المجلَّد 16، صفحة 36.
29. المصدر السَّابق، صفحة 37.

و – إذا كانَ العبـدُ مُشتـرَكًا بينَ اثنينِ، وأَعتقَ أحدُهُما نصيبَـهُ؛ وجبَ عليه شراءُ نصيبِ شريكِهِ، وإعتاقُ العبدِ[30] وإذا أعتقَ مالكٌ العبدَ بعضَهُ؛ سَرَتِ الحُريَّةُ إلى باقيهِ؛ فيُعتَقُ جميعُهُ[31].

ز – إذا ملكَ إنسانٌ أباهُ، أو أمَّهُ، أو أجدادَهُ، أو أبناءَهُ، أو عمَّهُ، أو عمَّتَهُ، أو خالَهُ، أو خالتَهُ، أو أخاهُ، أو أُختَهُ، أو ابنَ أخيهِ، أو ابنَ أُختِهِ، فإنَّهم يُعتقونَ فورًا.

ح – إذا استولدَ المالكُ جاريتَهُ؛ فلا يجوزُ بيعُهَا، وتُعتقُ مِنْ سهمِ ولدِهَا مِنَ الميراثِ.

وقدْ كانَ هذا الأمرُ سببًا في عتقِ الكثيرِ مِنَ العبيدِ؛ لأنَّ الجواري كُنَّ بمنزلةِ زوجاتِ مالكيهِنَّ، وكانَ لهُنَّ أولادٌ مِنْهُم.

ط – لقـدْ جُعِـلَ عتقُ العبيـدِ كفارةً لكثيرٍ مِـنَ الذُّنوبِ في الإسـلامِ، ككفَّارةِ القتلِ الخطأِ، وكفَّارةِ تركِ الصَّومِ عمدًا، وكفَّارةِ اليمينِ، وغيرِهَا.

ي – إذا عاقبَ المالكُ عبدَهُ ببعضِ العقوباتِ الشَّديدةِ؛ فإنَّ العبدَ ينعتِقُ تلقائيًّا[32].

المادَّةُ الثَّالثةُ: إحياءُ شخصيَّةِ الرَّقيقِ:

عِنْدَمَـا كانَ العبيدُ يطوُونَ مسيرَهُم نحوَ الحُريَّـةِ طِبقًا لبرنامجِ الإسلامِ الدَّقيقِ؛ أقـدمَ الإسلامُ على خطواتٍ واسعةٍ لإحياءِ حقوقِهِم، وشخصيَّتِهِمُ الإنسانيَّةِ؛ حتَّى أنَّـهُ لم يُفرِّقْ أبدًا بـينَ العبيدِ، والأحرارِ مِـنْ ناحيةِ الشَّخصيَّـةِ الإنسانيَّةِ، وجعلَ

30. الشَّرائع، كتاب العتق، وسائل الشِّيعة، المجلَّد 16، صفحة 21.
31. الشَّرائع، كتاب العتق.
32. وسائل الشِّيعة، المجلَّد 16، صفحة 26.

التَّقـوى معيـارًا للتَّمييزِ بينَهُم؛ ولذلـكَ أجازَ للعبيدِ أنْ يتقلَّـدُوا مسؤولياتٍ مُهمَّةً، ويتسلَّمُـوا مناصـبَ اجتماعيَّةً مُهمَّةً؛ حتَّـى أنَّ العبيدَ يمكنُهُـم أنْ يشغلوا منصبَ القضـاءِ[33]. وقدْ أُنيطـتْ بالعبيدِ في زمـنِ النَّبيِّ(ص) مراكزُ هامَّـةٌ وحسَّاسةٌ، ابتداءً مِنْ قيادةِ الجيشِ، وحتَّى المناصبِ الحسَّاسةِ الأُخرى.

وقدْ كانَ الكثيرُ مِنْ كبارِ صحابةِ النَّبيِّ(ص) عبيدًا، أو رقيقًا أُعتقُوا، وكانَ الكثيرُ مِنْهُم يـؤدُّونَ واجبَهُم كمُستشاريـنَ، ومُعاونينَ لعظماءِ الإسـلامِ، وقادتِهِ، ويمكنُ ذكـرُ أسماءِ سلمانَ، وبلالٍ، وعمَّارِ بنِ ياسرٍ، وقنـبرٍ مِنْ ضمنِ هذهِ القافلةِ. وبعدَ أنِ انتهـتْ غـزوةُ بني المصطلقِ تزوَّجَ النَّبيُّ(ص) بجاريـةٍ عتيقةٍ مِنْ هذهِ القبيلةِ، وكانَ هذا الزَّواجُ سببًا في إطلاقِ سراحِ كُلِّ أسرى القبيلةِ.

المادَّةُ الرَّابعةُ: المُعاملةُ الإنسانيَّةُ معَ العبيدِ:

لقـدْ وردتْ في الإسلامِ تعليماتٌ كثيرةٌ حولَ الرِّفـقِ بالعبيدِ، ومُداراتِهِم؛ حتَّى أنَّها أشركتْهُم في حياةِ مالكيْهِم.

يقـولُ النَّبيُّ الأكرمُ(ص): «إخوانُكُم جعلَهُمُ اللهُ تحتَ أيديكُمْ، فَمَنْ كانَ أخوهُ تحتَ يدِهِ فَلْيُطعمْهُ مِمَّا يأكلُ، وَلْيكْسِهِ مِمَّا يلبسُ، ولا يُكلِّفهُ ما يغلبُهُ، فإنْ كانَ ما يغلبُهُ فَلْيُعِنْهُ»[34].

ويقـولُ عليٌّ(ع) لغلامِـهِ قنبرٍ: «أنا أستحيي مِنْ ربِّـي أنْ أتفضَّلَ عليكَ؛ لأنَّ رسولَ اللهِ يقولُ: ألبِسُوهُمْ مِمَّا تلبسونَ، وأطعِمُوهُمْ مِمَّا تأكلونَ»[35].

33. الشَّرائع، كتاب القضاء.
34. بحار الأنوار، المجلَّد 74، صفحة 141، حديث 11.
35. المصدر السَّابق، صفحة 144، حديث 19.

ويقـولُ الإمامُ الصَّـادقُ(ع): «وإنْ كانَ أبـي لَيَأْمُرُهُمْ -أيْ غلمانَـهُ- فيقولُ: كما أنتم؛ فيأتي، فإنْ كانَ ثقيلاً؛ قالَ: بسمِ اللّه؛ ثُمَّ عملَ معهُمْ»[36].

لقـدْ كانتْ معاملةُ الإسـلام معَ العبيدِ في هذهِ المرحلـةِ الإنتقاليَّةِ حسنةً إلى الحدِّ الَّذي أكَّدَ عليها حتَّى الغُرباءُ عَنِ الإسلامِ، وحمدُوْهَا، ومَجَّدُوْهَا.

وكنموذجٍ لذلكَ نذكرُ ما يقولُهُ «جرجي زيدان» في تأريخِ تُمدُّنِه: إنَّ الإسلامَ رحيمٌ بالعبيـدِ كُلِّ الرَّحمـةِ، وقدْ أوصى نبيُّ الإسلامِ بالعبيدِ كثـيرًا، ومِنْ جُملةِ ما قالَهُ: لا تُكلِّفُـوا العبدَ ما لا يُطيقُ، وأَطْعِمُوْهُ ممَّـا تأكلونَ. ويقولُ في موضعٍ آخرَ: لا تُنادُوا مماليكَكُم بِيَا غُلامٌ، ويَا جاريةٌ، بل قولوا: يا بُنَيَّ، ويا ابنتي!

وأوصـى القرآنُ أيضًـا بالرَّقيقِ وصايا رائعـةً، فهوَ يقولُ: اعبـدُوا اللّهَ ولا تُشركُوا بـهِ شيئًا، ولا تُعاملُـوا آباءَكُم، وأمَّهاتِكُـم، وأُولي أرحامِكُـم، واليتامى، والفقراءَ، والجيرانَ، البعيدَ مِنْهُم، والقريبَ، والأصدقاءَ، والمُشرَّدينَ، والرَّقيقَ، إلَّا بالحُسنى؛ فإنَّ اللّه لا يرضى بالعُجبِ، والرِّضى مِنَ النَّفسِ[37].

المادَّةُ الخامسةُ: أقبحُ الأعمالِ بيعُ الإنسانِ:

يُعَـدُّ بيـعُ العبيدِ، وشراؤهم مِنْ أبغضِ المُعامـلاتِ في الإسلامِ، حتَّى وردَ في حديثٍ عَنِ النَّبيِّ الأكرمِ(ص): «شرُّ النَّاسِ مَنْ باعَ النَّاسَ»[38].

وهذا التَّعبيرُ كافٍ لتوضيحِ وجهةِ نظرِ الإسلامِ في شأنِ العبيدِ، ويُبيِّنُ اتِّجاهَ حركةِ

36. المصدر السَّابق، صفحة 142، حديث 13.
37. تاريخ التمدُّن، المجلَّد 4، صفحة 54.
38. المُستدرك، المجلَّد 2، كتاب التِّجارة، باب 19، حديث 1.

البرامج الإسلاميَّة، وما تريدُ تحقيقَهُ، والوصولَ إليه، والأروعُ مِنْ ذلكَ أنَّ الإسلامَ قد اعتبرَ سلبَ حُريَّة البشر، وتبديلهُم إلى سلعةٍ تُباعُ، وتُشترى، مِنَ الذُّنوبِ الَّتي لا تُغفـرُ؛ فقدْ وردَ في حديثٍ عَـنْ نبيِّ الإسلام الأكرم(ص): «إنَّ اللّه تعالى غافرُ كُلِّ ذنبٍ إلَّا مَنْ جحدَ مَهْرًا، أو اغتصبَ أجيرًا أجرَهُ، أو باعَ رجلاً حُرًّا»[39].

وطبقًا لهذا الحديث؛ فـإنَّ اغتصابَ حقوقِ النِّساء، والعُمَّال، وسلبَ حريَّة البشر، ثلاثـةُ ذنوبٍ لا تُغفرُ. وكما قُلنا سابقًا؛ فإنَّ الإسلامَ لم يُبِح الاسترقاقَ إلَّا في موردِ أسرى الحربِ، وحتَّى في هذا المورد لا يكونُ الاسترقاقُ إلزاميًّا، وكانَ ذلكَ في عصرِ ظهورِ الإسلام، غيرَ أنَّنا نرى العبوديَّةَ، والاسترقاقَ مُتفشِّيةً في الدُّولِ الغربيَّة، بعدَ عِدَّةِ قرونٍ مِنْ ظهورِ الإسلام؛ حيثُ كانَ المُستعمرونَ يُشنُّونَ الحملاتِ، والهجماتِ الشَّرسـةَ على بلدانِ السُّودِ، ويقبضونَ على البشرِ الأحـرارِ، ويُحوِّلونَهُم إلى رقيقٍ يُباعـونَ، ويُشتَرَوْنَ، وقدْ بلغَ بيعُ، وشـراءُ العبيدِ حدًّا رهيبًا؛ بحيثُ كانَ يُباعُ في كُلِّ سنـة(200.000) عبدٍ في بريطانيا، أواخرَ القـرنِ الثَّامنَ عشرَ، وكانوا يأخذونَ مائةَ ألفِ نسمةٍ مِنْ أفريقيا كُلَّ عامٍ، ويُرسلونهم إلى أمريكا كعبيدٍ[40].

وخلاصـةُ القـول: إنَّ الَّذينَ يعترضـونَ على برنامجِ الإسـلامِ في مسألةِ الرَّقيقِ قدْ سمعوا كلامًـا لم يتأمَّلُوا فيه، ولم يَطَّلِعُوا الاطِّلاعَ الكافي على أصولِ البرنامجِ، وهدفـه، وهـوَ «تحريرُ العبيـدِ تدريجيًّا»، ومِـنْ دونِ خسائرَ، أو إنَّهـم وقعُوا تحتَ تأثيرِ المُغرضينَ الَّذينَ يظنُّونَ أنَّ هذهِ نقطةُ ضعفٍ كبيرةٍ في الإسلام، وطبَّلُوا لها، وزمَّرُوا، وسخَّرُوا لها وسائلَ الإعلامِ، إلَّا أنَّ الظنَّ لا يُغني مِنَ الحقِّ شيئًا.

39. بحار الأنوار، المجلَّد 103، صفحة 168، حديث 11.
40. الميزان، الجزء 6، صفحة 368.

الآيـــــــــــــات 7 - 11

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَنْصُرُواْ اللّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7) وَالَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (8) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (9) أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (10) ذلِكَ بِأَنَّ اللّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ (11)﴾

التَّفسيرُ:

إنْ تنصرُوا اللهَ ينصرْكُم:

تستمـرُّ هذهِ الآيـاتُ في ترغيبِ المؤمنينَ في جهـادِ أعداءِ الحقِّ، وهـيَ تُرغِّبُهُم في الجهـادِ بتعبيرٍ رائعٍ، بليغٍ، فتقولُ: (يا أيُّها الَّذيـنَ آمنوا إنْ تنصرُوا اللهَ ينصرْكُمْ ويثبِّتْ أقدامَكُم).

إنَّ التَّأكيدَ على مسألةِ «الإيمانِ» إشارةٌ إلى أنَّ إحدى علاماتِ الإيمانِ الحقيقيِّ هيَ جهـادُ أعداءِ الحقِّ. وعبارةُ (تنصرُوا اللهَ) تعني -بوضوحٍ- نُصرةُ دينِه، ونُصرةُ نبيِّـه، وشريعتِـه، وتعليماتِه؛ ولذلكَ وردتْ نُصـرةُ اللهِ إلى جانبِ نُصرةِ رسولِه في بعضِ آيـاتِ القرآنِ الكريمِ، كما نقرأُ في الآيةِ (8) مِـنْ سورةِ الحشرِ: (وينصرونَ اللهَ ورسولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادقونَ).

ومَـعَ أنَّ قدرةَ اللهِ سُبحانَهُ غيرُ محـدودةٍ، ولا قيمةَ لقدرةِ المخلوقاتِ حيالَ قدرتِه؛ غـيرَ أنَّهُ يُعبِّرُ بنُصرةِ اللهِ؛ ليُوضِّحَ أهميَّةَ الجهادِ، والدِّفاعِ عَنْ دينِ اللهِ، ولا يوجدُ تعبيرٌ أعظمُ مِنْ هذا لتِبْيَانِ أهميَّةِ هذا الموضوعِ.

وَلْنَرَ، ما هوَ هذا الوعدُ الَّذي وعدَ اللّٰهُ بهِ المُجاهدينَ إذا ما دافعُوا عَنْ دينِهِ؟

يقولُ أوَّلاً (ينصرْكُم). أمَّا كيفَ يتمُّ ذلكَ؛ فإنَّ الطُّرقَ كثيرةٌ؛ فهوَ سُبحانَهُ يُلقي في قلوبِكُمْ نورَ الإيمانِ، وفي نفوسِكُمْ، وأرواحِكُمُ التَّقوى، وفي أرادتِكُمُ القوَّةَ، والتَّصميمَ أكثرَ، وفي أفكارِكُمُ الهدوءَ، والاطمئنانَ. ومِنْ جانبٍ آخرَ، يُرسلُ الملائكةَ؛ لِمدِّكُمْ، ونُصرتِكُمْ، ويُغيِّرُ مسارَ الحوادثِ لِصالحِكُمْ، ويجعلُ أفئدةَ النَّاسِ تهوي إليكُمْ، ويجعلُ كلماتِكُمْ نافذةً في القلوبِ، ويُصيِّرُ نشاطاتِكُمْ، وجهودَكُمْ مثمرةً.

نَعَم، إنَّ نُصرةَ اللّٰهِ تُحيطُ بالجسمِ، والرُّوحِ، مِنَ الدَّاخلِ، والخارجِ.

إلَّا أنَّهُ سُبحانَهُ يؤكِّدُ على مسألةِ تثبيتِ الأقدامِ مِنْ بينِ كُلِّ أشكالِ النُّصرةِ؛ وذلكَ لأنَّ الثَّباتَ أمامَ العدوِّ أهمُّ رمزٍ للانتصارِ، وإنَّمَا يكسبُ الحربُ الَّذينَ يصمدونَ، ويستقيمونَ أكثرَ؛ ولذلكَ نقرأُ في قصَّةِ مُحاربةِ طالوتَ -القائدِ العظيمِ لبني إسرائيلَ- لجالوتَ -المُتسلِّطِ، الجائرِ، القويِّ- أنَّ المؤمنينَ القليلينَ، الَّذينَ كانوا معَهُ، عِنْدَمَا واجهُوا جيشَ العدوِّ الجرَّارَ؛ قالوا: (ربَّنَا أفرغْ علينا صبرًا وثبِّتْ أقدامَنَا وانصرْنَا على القومِ الكافرينَ). ونقرأُ في الآيةِ الَّتي بعدَهَا: (فهزموهُمْ بإذنِ اللّٰهِ).

أَجَل، إنَّ نتيجةَ ثباتِ القدمِ هيَ النَّصرُ المُؤزَّرُ على العدوِّ.

ولَمَّا كانتْ حُشودُ العدوِّ العظيمةُ، وأنواعُ مُعدَّاتِهم، وتجهيزاتُهم، قدْ تشغلُ فكرَ المُجاهدينَ في سبيلِ اللّٰهِ أحيانًا؛ فإنَّ الآيةَ التَّاليةَ تُضيفُ: (والَّذينَ كفروا فَتَعْسًا لهم وأَضَلَّ أعمالَهُمْ)[1].

1. «تعسًا» مفعول مُطلق لفعلٍ مُقدَّرٍ، والتَّقديرُ: تعسهم تعسًا، وجملة (أضلَّ أعمالهم) عطفٌ على هذا الفعلِ المُقدَّرِ، وكلاهما بصيغة اللَّعنة، مثل (قاتلهم اللّٰه)، ومِنَ الواضح أنَّ اللَّعنة مِنْ قِبَلِ اللّٰهِ تعني وقوعها.

«تَعْس» -على وزن نَحْس- بمعنى الانزلاق، والهوي، وما فسَّرَهُ البعضُ بأنَّهُ الهلاكُ، والانحطاطُ؛ فهوَ لازمُهُ في الواقع، لا معناهُ. وعلى كُلِّ حالٍ؛ فإنَّ المقارنةَ بينَ هذين الفريقين عميقةُ المعنى جدًّا؛ فالقرآنُ يقولُ في شأنِ المؤمنينَ (يُثبِّتُ أقدامَهُم)، وفي شأنِ الكافرينَ (أضلَّ أعمالَهُم)، وبصيغةِ اللَّعنةِ، ليكونَ التعبيرُ أبلغَ، وأكثرَ جاذبيَّةً، وتأثيرًا.

نَعَم، إنَّ الكافرينَ إذا انزلقُوا، وزلَّتْ أقدامُهُم؛ فليسَ هُناكَ مَنْ يأخذُ بأيديهِمْ؛ ليُنقذَهُمْ مِنَ الهَلَكَةِ، بَلْ إنَّهم سينحدِرُونَ إلى الهاويةِ سريعًا، وبسهولةٍ، أمَّا المؤمنونَ، فإنَّ ملائكةَ الرَّحمةِ تهبُّ لنَجدتِهِمْ، ونُصرتِهِمْ، ويحفظونَهُمْ مِنَ المُنزلقاتِ، والمُنحدراتِ، كما نقرأُ ذلكَ في موضعٍ آخرَ، حيثُ تقولُ الآيةُ (30) مِنْ سورةِ فُصِّلَتْ: (إنَّ الَّذينَ قالوا ربُّنَا اللهُ ثُمَّ استقامُوا تتنزَّلُ عليهُمُ الملائكةُ).

إنَّ أعمالَ المؤمنينَ مُباركةٌ، أمَّا أعمالُ الكافرينَ فإنَّها بائرةٌ؛ ولذلكَ فهيَ تزولُ، وتفنى سريعًا. وتُبيِّنُ الآيةُ التَّاليةُ علَّةَ سُقُوطِ هؤلاءِ، وجعلِ أعمالِهِمْ هباءً منثورًا؛ فتقولُ: (ذلكَ بأنَّهم كَرِهُوا ما أنزلَ اللهُ فأحبطَ أعمالَهُمْ).

لقدْ أنزلَ اللهُ سُبحانَهُ دينَ التَّوحيدِ قبلَ كُلِّ شيءٍ، إلَّا أنَّ هؤلاءِ نبذُوهُ وراءَ ظهورِهِمْ، وأقبلُوا نحوَ الشِّركِ. لقدْ أمرَ اللهُ سُبحانَهُ بالحقِّ، والعدالةِ، والعفَّةِ، والتَّقوى، غيرَ أنَّهم أعرضُوا عَنْهَا جميعًا، واتَّجهُوا صوبَ الظُّلمِ، والفسادِ، بلْ إنَّهم تشمئزُّ قلوبُهُم إذا ذُكِرَ اسمُ اللهِ تعالى وحدَهُ: (وإذا ذُكِرَ اللهُ وحدَهُ اشمأزتْ قلوبُ الَّذينَ لا يؤمنونَ بالآخرةِ)[2].

وإذا كانَ هؤلاءِ يتنفَّرونَ مِنْ هذهِ الأُمورِ؛ فَمِنَ الطَّبيعيِّ أنْ لا يخطُوا خطوةً في

2. الزمر، الآية 45.

هذا المسيرِ، ولقدْ كانتْ كُلُّ مساعيهِمْ، وجهودِهم في مسيرِ الباطلِ، وخدمتِهِ، فَمِنَ الطَّبيعـيِّ أيضًا أنْ تُحبطَ كُلُّ هذهِ الأعمالِ. وجاءَ في حديثٍ عَنِ الإمامِ الباقرِ(ع): «كَرِهُوا ما أنزلَ اللهُ في حقِّ عليٍّ»[3].

ومعلومٌ أنَّ لِتعبيرِ(ما أنزلَ اللهُ) معنًى واسعًا، ومسألةُ ولايةِ أميرِ المؤمنينَ عليٍّ(ع) أحدُ مصاديقِهِ الواضحةِ، لا أنَّ معناهُ مُنحصرٌ فيها.

ولَمَّا كانَ القرآنُ الكريمُ في كثيرٍ مِنَ الموارد يعرضُ للظَّالمينَ العاصينَ نماذجَ محسوسةً؛ فقدْ دعاهُمْ هُنا أيضًا إلى التَّدبُّرِ في أحوالِ الماضينَ؛ فقالَ: (أَفَلَمْ يسيرُوا في الأرضِ فينظرُوا كيفَ كانَ عاقبةُ الَّذينَ مِنْ قبلِهِمْ دمَّرَ اللهُ عليهِمْ)؟

ومِنْ أجلِ أنْ لا يظنَّ هؤلاءِ أنَّ ذلكَ المصيرَ المشؤومَ كانَ مُختصًّا بالأقوامِ الطاغينَ الماضينَ؛ فقدْ أضافتِ الآيةُ: (وللكافرينَ أمثالُهَا)[4]؛ فلا يظنُّوا أنَّهم في منأًى مِنَ العقابِ المُشابهِ لذلكَ العقابِ، إنْ هُمْ عملُوا أعمالاً تُشابهُ أعمالَ الماضينَ؛ فَلْيَسيرُوا في الأرضِ، وَلْيَنظرُوا آثارَ الَّذينَ مِنْ قبلِهِمْ؛ ثُمَّ لِينظرُوا مستقبلَهُمْ مِنْ خلالِ سُنَنِ التَّأريخِ.

والجديرُ بالإنتباهِ أنَّ(دمَّرَ) مِنْ مادَّةِ(تدمير)، وهيَ مِنَ الأصلِ بمعنى الإهلاكِ، والإفناءِ، أمَّا إذا أتتْ مَعَ(على)؛ فإنَّها تعني إهلاكَ كُلِّ شيءٍ؛ حتَّى الأولادِ، والأهلِ، والعشيرةِ، والأموالِ الخاصَّةِ بالإنسانِ[5].

وعلى هذا؛ فإنَّ هذا التعبيرَ بيانٌ لمصيبةٍ أليمةٍ، خاصَّةً بملاحظةِ لفظِ(على) الَّذي يُستعملُ عادةً في موردِ التَّسلُّطِ؛ وبذلكَ يصبحُ معنى الجملةِ: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قدْ

3. مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث.
4. ضمير «أمثالها» يعود إلى العاقبة الَّتي تستفاد مِنَ الجملة السَّابقة.
5. تفسير روح المعاني، وروح البيان، والفخر الرازي.

صبَّ عذابَهُ على رؤوسِ هؤلاءِ الأقوامِ، وأموالِهِم، وكُلِّ ما يتعلَّقُ بِهِم؛ فأفناها جميعًا.

وقـدْ بحثنا موضوعَ «السيرِ في الأرضِ» -والَّذي يؤكِّدُ عليه القـرآنُ المجيدُ مِرارًا، كبرنامجٍ توعيةٍ مؤثِّرٍ- بصورةٍ مُفصَّلةٍ في ذيلِ الآيةِ(137) مِنْ سورةِ آلِ عمرانَ، والآيـةِ(45) مِـنْ سـورةِ الـرُّوم. وتناولتْ آخـرُ آيةٍ -مِـنَ الآياتِ مـوردِ البحثِ- سببَ حمايـةِ اللهِ المُطلقةِ للمؤمنينَ، ودفاعِـه عَنْهُم، وإهلاكِـه الكافرينَ الطُّغاةَ؛ فتقولُ: (ذلكَ بأنَّ اللهَ مولى الَّذينَ آمنوا وأنَّ الكافرينَ لا مولى لهم)[6].

«المـولى» بمعنى الـوليِّ، والنَّاصرِ؛ وبذلكَ فإنَّ اللهَ سُبحانَـهُ قدْ تولَّى أمرَ المؤمنينَ، ونصرتَهـم، أمَّا الكافرونَ فقـدْ أخرجَهُم مِنْ ظلِّ ولايتِه، ومِـنَ الواضحِ أنَّهُ تعالى يُعـينُ أُولئـكَ المُستظلِّينَ بظـلِّ ولايتِه، ويدفعُ عَنْهُـمُ النَّوائبَ، ويُزيلُ عَـنْ طريقِهِمُ العراقيـلَ، ويثبِّتُ أقدامَهُم، وأخيرًا، فإنَّهم ينالونَ مُرادَهُم بنُصرةِ اللهِ، ومعونتِه؛ أمَّا أُولئكَ الخارجونَ عَنْ ولايتِه؛ فإنَّ أعمالَهُمْ ستُحبطُ، ويكونُ الهلاكُ عاقبتَهُم.

وهُنـا يأتـي سـؤالٌ، وهوَ: إنَّ الآيةَ مـوردَ البحثِ قدْ ذكـرتْ أنَّ اللهَ سُبحانَهُ مولى المؤمنينَ فقطْ، في حينِ أنَّهُ سُبحانَهُ وصفَ في بعضِ آياتِ القرآنِ الأُخرى بأنَّهُ مولى الجميـعِ، حتَّى الكافرينَ، كما في الآيةِ(30) مِنْ سـورةِ يونسَ؛ حيثُ تقولُ: (وردُّوا إلى اللهِ مولاهم الحقّ وضلَّ عَنْهُم ما كانوا يفترونَ).

وتتَّضحُ الإجابةُ على هذا السؤالِ بملاحظةٍ نُكتةٍ واحدةٍ، وهيَ: إنَّ ولايةَ اللهِ العامَّةَ -وهـيَ كونُهُ خالقًـا مُدبِّرًا- تعمُّ الجميـعَ، أمَّا الولايةُ الخاصَّـةُ، وعنايتُهُ الخاصَّةُ المُقترنةُ بأنواعِ الحمايةِ، والنُّصرةِ؛ فإنَّها لا تشملُ إلَّا المؤمنينَ[7].

6. المشار إليه بـ(ذلك) هي عاقبة المؤمنين الحسنة، وعاقبة الكافرين المشؤومة، واللتان أشير إليهما في الآيات السَّابقة.
7. فسّر البعض -كالآلوسي في روح المعاني- «المولى» في الآية مورد البحث بالناصر، وفي آية سورة يونس وأمثالها. بالمالك.

وقـالَ البعضُ: إنَّ هذهِ الآيةَ أرجى آيةٍ في القرآنِ؛ لأنّها أدخلتْ كُلَّ المؤمنينَ، العالمَ مِنْهُـم، والجاهلَ، الزَّاهدَ، والرَّاغبَ، الصَّغيرَ، والكبـيرَ، المرأةَ، والرَّجلَ، الشَّابَّ، والكهـلَ، أدخلتْهُم تحتَ حمايـةِ اللهِ، ورعايتِهِ الخاصَّـةِ، ولم تستثنِ حتَّى المؤمنيَن العاصـينَ؛ فهوَ سُبحانَهُ يُظهرُ رعايتَهُ في المواقـفِ الحسَّاسةِ، واللَّحظاتِ الحرجةِ، والحـوادثِ، والمصائبِ، والنَّكباتِ، وكُلُّ فـردٍ مِنَّا قدْ أحسَّ بهذهِ الرِّعايةِ طيلةَ مُدَّةِ حياتِهِ، وفي التَّأريخِ شواهدُ كثيرةٌ على ذلكَ.

وقـدْ وردَ في حديـثٍ أنَّ النَّبيَّ(صـ) كانَ بعدَ غـزوةٍ تحتَ شجـرةٍ، وحيدًا؛ فحملَ عليهِ مُشركٌ بسيفٍ؛ فقالَ لهُ: مَنْ يُخلِّصُكَ مِنِّي؟ فقالَ النَّبيُّ(ص): «اللهُ» فسقطَ المُشركُ؛ فأخـذتِ الكافرَ رعدةٌ، وهوى السَّيفُ على الأرضِ، فأخذَهُ النَّبيُّ(ص)، وقالَ لهُ: «فَمَنْ يخلِّصُكَ مِنِّي»؟ قالَ: لا أحدَ، ثُمَّ أسلمَ[8].

نَعَم، اللهُ مولى الَّذينَ آمنُوا، وإنَّ الكافرينَ لا مولى لهم.

8. روح البيان، المجلَّد 8، صفحة 503.

الآيـــــــــــــات 12 - 14

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12) وَكَأَيِّن مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ (13) أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُواْ أَهْوَاءَهُم (14)﴾

التَّفسيرُ:

عاقبةُ المؤمنينَ، والكافرينَ:

لمَّا كانتِ الآياتُ السَّابقةُ تتحدَّثُ عَنِ الصِّراعِ الدَّائمِ بينَ الحقِّ، والباطلِ، والإيمانِ، والكفرِ؛ فـإنّ الآياتِ موردَ البحثِ تُبيّنُ عاقبةَ المؤمنـينَ، والكُفَّارِ مِنْ خلالِ مُقارنةٍ واضحةٍ، وهيَ بذلكَ تريدُ أنْ تُوضِّحَ أنَّ هذينِ الفريقينِ لا يختلفانِ في الحياةِ الدُّنيا وحسـبُ، بلْ إنَّ الاختلافَ بينَهُمَا سيكونُ أوسعَ في الآخـرةِ؛ فتقولُ: (إنَّ اللَّهَ يُدخلُ الَّذيـنَ آمنُـوا وعملُـوا الصَّالحاتِ جنَّاتٍ تجري مِـنْ تحتِهَا الأنهـارُ والَّذينَ كفرُوا يتمتَّعُونَ ويأكلُونَ كَمَا تأكلُ الأنعامُ والنَّارُ مثوًى لَهُم)[1].

صحيـحٌ أنَّ كِلا الفريقـينِ يعيشونَ في الدُّنيا، ويتنعَّمُونَ بمواهبِهَـا، ولذَّاتِهَا؛ إلَّا أنَّ الفرقَ يكمنُ في أنَّ هدفَ المؤمنينَ هوَ القيامُ بالأعمالِ الصَّالحةِ، والأعمالِ المُفيدةِ البنَّاءةِ؛ لجلبِ رضى اللَّهِ تعالى.

1. كما تأكل.. في محل نصب مفعول مطلق مقدّر، والتقدير: يأكلون أكلاً كما تأكل الأنعام.

أمَّـا الكافرونَ؛ فإنَّ هدفَهُم ينصـبُّ على الأكلِ، والشُّربِ، والنَّـومِ، والتَّمتُّعِ بلذَّاتِ الحيـاةِ. المؤمنـونَ يتحرَّكُونَ حركةً واعيـةً، هادفةً، والكافـرونَ يحيونَ بلا هدفٍ، ويموتونَ بلا هدفٍ، كالأنعامِ تمامًا.

المؤمنـونَ يضعـونَ شروطًا كثيرةً للتَّمتُّعِ بنعـمِ الحياةِ؛ فَهُمْ يُدقِّقُـونَ في مشروعيةِ طـرقِ الحصولِ عليها، كما يُدقِّقُونَ كيفَ يُنفقونَها، أمَّا الكافرونَ؛ فإنَّهم كالدَّوابِ لا يهمُّهَـا أنْ يكونَ علفُهَا مِنْ أرضِ صاحبِهَا، أو يكونَ مغصوبًا، وسواءٌ كانَ مِنْ حقِّ يتيمٍ، أو عجوزٍ بائسةٍ أمْ لا!

عِنْدَمَـا يَتَنَعَّـمُ المؤمنـونَ بنعمةٍ؛ فإنَّهـم يُفكِّـرُونَ في واهبِهَا، ويتدبَّـرُونَ في آياتِهِ، ويشكرونَهُ عليها، أمَّا الكافرُ الغافلُ؛ فلا يفكِّرُ في أيِّ شيءٍ لِغفلتِهِ، وهوَ يُضيفُ إلى حِمْلِـهِ حِمْلاً جديدًا مِنَ الظُّلمِ، والذُّنوبِ باستمـرارٍ، ويُدني نفسَهُ مِنَ الهلاكِ بَعْدَ أنْ تُثقلَهُ الأوزارُ، حالُهُ في ذلكَ حالُ الأغنامِ السَّمينةِ؛ فهيَ كُلَّمَا تأكلُ أكثرَ، وتسمُنُ أكثرَ، تكونُ أقربَ إلى الذَّبحِ. وقالَ البعضُ: إنَّ الفرقَ بينَ المؤمنينَ، والكافرينَ، أنَّ المؤمنَ لا يخلُو أكلُهُ مِنْ ثلاثٍ: الورعُ عِنْدَ الطَّلبِ، واستعمالُ الأدبِ، والأكلُ للسَّببِ. والكافرُ يطلبُ للنَّهمةِ، ويأكلُ للشَّهوةِ، وعيشُهُ في غفلةٍ.

ومِمَّـا يستحقُّ الانتبـاهَ أنَّ القرآنَ الكريمَ يقولُ في شـأنِ المؤمنينَ: (إنَّ اللَّهَ يُدخلُ الَّذيـنَ آمنُـوا وعملُوا الصَّالحـاتِ جنَّـاتٍ)، ويقـولُ في الكافرينَ: (والنَّارُ مثوًى لَهُم)؛ فإنَّ التَّعبيرَ الأوَّلَ يدلُّ على احترامِ المؤمنينَ، وتقديرِهِم، وإنَّ اللَّهَ سُبحانَهُ يُدخِلُهُمُ الجنَّةَ، أمَّا التَّعبيرُ الثَّاني؛ فإنَّهُ يُوحي باحتقارِ الكُفَّارِ الَّذينَ خرجُوا مِنْ ولايتِهِ، وعدمِ الاهتمامِ بِهِم.

واستفادَ بعضُ المُفسِّرينَ مِنْ جملةِ: (والنَّارُ مثوًى لَهُم) -أيْ محلَّهُمُ النَّارُ- أنَّهم الآنَ في النَّارِ؛ لأنَّ الجملةَ ليستْ بصيغةِ الفعلِ المضارعِ، والمستقبلِ، وإنَّما هي تُخبرُ عَنِ الحالِ.

والحقيقـةُ كذلكَ؛ لأنَّ أعمـالَ هؤلاءِ، وأفكارَهُم نارٌ بحدِّ ذاتِهـا، وهُم مُبتلَونَ بها، وقدْ أحاطتْ بهم جهنَّمُ مِنْ كُلِّ مكانٍ، وإنْ كانَ هؤلاءِ الَّذينَ هُم كالأنعامِ في غفلةٍ، كما نقرأُ ذلكَ في الآيةِ (49) مِنْ سورةِ التَّوبةِ: (وإنَّ جهنَّمَ لمحيطةٌ بالكافرينَ).

وفي بعضِ آيـاتِ القـرآنِ الأُخـرى شبَّـهَ أصحـابَ النَّـارِ بالأنعـامِ، بل هُـم أضلُّ مِنْها: (أُولئِـكَ كالأنعامِ بـلْ هُم أضلُّ أُولئِكَ هُم الغافلـونَ)[2]، وقدْ أوردْنَا في ذيلِ هذهِ الآيةِ شرحًا مُفصَّلاً.

ومِـنْ أجلِ إكمالِ هذا الهدفِ؛ تُقارنُ الآيةُ التَّاليةُ بينَ مُشركي مكَّةَ، وعبدةِ الأوثانِ الماضينَ، وبعبارةٍ أوضـحَ، فإنَّها تُهدِّدُهُم تهديدًا شديدًا، وتُؤكِّدُ ضمنيًّا على بعضِ جرائمِهِـم الشَّنيعةِ الَّتي تدلُّ على جوازِ قتالِهـم فتقولُ: (وكأيِّنْ مِنْ قريةٍ هيَ أشدُّ قوَّةً مِنْ قريتِكَ الَّتي أخرجتْكَ أهلكناهُم فلا ناصرَ لَهُم).

فـلا يظنُّ هـؤلاءِ أنَّ الدُّنيـا مُستوسقةٌ لَهُـم إلى درجةِ أنَّهم اجـترؤوا على إخراجِ أشرفِ رُسلِ اللهِ مِنْ أقدسِ المُدنِ؛ فإنَّ الأمرَ لا يدومُ كذلكَ؛ فهُم بالقياسِ إلى قومِ عادٍ، وثمودَ، والفراعنةِ، وجيشِ أبرهةَ موجوداتٌ ضعيفةٌ عاجزةٌ، واللهُ قادرٌ على تدميرِهِم بكُلِّ سهولةٍ، والقضاءِ عليهم يسيرٌ على اللهِ سُبحانَهُ.

وجاءَ في روايةٍ عَنِ ابنِ عبَّاسٍ: إنَّ النَّبيَّ(ص) لمَّا خرجَ مِنْ مكَّةَ إلى غارِ ثورٍ؛ توجَّهَ إلى مكَّـةَ، وقالَ: «أنتِ أحبُّ البلادِ إلى اللهِ، وأنتِ أحبُّ البلادِ إليَّ، ولولا المشركونَ

2. الأعراف، الآية 179.

أهلُـكِ أخرجوني لَمَا خرجتُ مِنْـكِ»؛ فنزلتْ الآيةُ أعلاهُ تبشِّـرُ النَّبيَّ(ص) بنصرِ اللهِ، وتُهدِّدُ الأعداءَ بالعذابِ، والعقابِ[3].

وطبقًـا لسببِ النُّزولِ هذا؛ تكونُ الآيـةُ مكيَّةً، لكنْ يبدُو أنَّ سببَ النُّزولِ هذا يتعلَّقُ بالآيةِ(85) مِنْ سورةِ القصصِ، وقدْ ذكرَهُ كثيرٌ مِنَ المُفسِّرينَ هُناكَ؛ فهوَ ينسجمُ مَعَ تلكَ الآيةِ أكثرَ؛ إذْ تقولُ: (إنَّ الَّذي فرضَ عليكَ القرآنَ لرادُّكَ إلى معادٍ)[4].

والمُلفـتُ للنَّظرِ أنَّ الآيـةَ نسبتِ الإخراجَ إلى مكَّةَ نفسِهَا، في حـينِ أنَّ المرادَ أهلُهَا، وهذهِ كنايةٌ لطيفةٌ عَنْ تسلُّطِ فئةٍ مُعيَّنةٍ، على مُقدَّراتِ المدينةِ، وقدْ وردَ نظيرُ ذلكَ في مواضعَ أُخرى مِنَ القرآنِ المجيدِ.

ثُـمَّ إنَّ التَّعبـيرَ بالقريـةِ -وكما قُلنـا ذلكَ مِـرارًا- يُطلقُ على كُلِّ مدينـةٍ، وأرضٍ عامرةٍ، مسكونةٍ، ولا يخصُّ المعنى المُتعارفَ للقريةِ.

وتطـرحُ آخرُ الآياتِ -مـوردِ البحثِ- مُقارنةً أُخرى بينَ المؤمنـينَ، والكُفَّارِ... بينَ فئتـينِ تختلفانِ في كُلِّ شيءٍ؛ فإحدَاهُمَا مؤمنةٌ، تعمـلُ الصَّالحاتِ، وتحيا الأُخرى حيـاةً حيوانيَّةً بكُلِّ معنـى الكلمةِ... بينَ فريقينِ، أحدُهُمـا مُستظِلٌّ بظلِّ ولايةِ اللهِ سُبحانَـهُ، والآخرُ لا مـولى لهُ، ولا ناصرَ، فتقولُ: (أَفَمَنْ كانَ على بيِّنةٍ مِنْ ربِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لهُ سوءُ عملِهِ واتَّبعُوا أهواءَهُم)؟

إنَّ الفريـقَ الأوَّلَ قدِ اختـارُوا طريقَهُم عَنْ معرفةٍ صحيحةٍ، ورؤيةٍ واقعيَّةٍ، وعَنْ يقينٍ، ودليلٍ، وبرهانٍ قطعيٍّ، وهُم يرونَ طريقَهُم، وهدفَهُم بوضوحٍ، ويسيرونَ نحوَهُ بسرعةٍ.

3. تفسير القرطبيّ، المجلَّد 9، صفحة 6055.
4. لمزيد مِنَ التفصيل حول هذا المطلب يراجع تفسير الآية(85) مِنْ سورة القصص.

أمَّـا الفريقُ الثَّـاني؛ فقدْ ابتُلوا بسـوءِ التَّشخيصِ، وعـدمِ إدراكِ الواقـعِ، وظُلمةِ المسيرِ، والهدفِ؛ فهُم في ظلماتِ الأوهامِ حائرونَ.

والعامـلُ الأساسُ في هذهِ الحيرةِ، والضَّلالةِ هوَ اتِّباعُ الهوى، والشَّهواتِ؛ لأنَّ الهوى، والشَّهـواتِ تُلقي الحُجُبَ علـى عقلِ الإنسانِ، وفكرِهِ؛ فتُصوِّرُ لـهُ القبيحَ حسنًا، كما نرى أُناسًـا يفخرونَ بأعمالِهِمُ الَّتي يندى لها الجبينُ، وهيَ وصمةُ عارٍ في جباهِهِم، كما جاءَ ذلكَ في الآية(103) منْ سورةِ الكهفِ:(قُلْ هلْ ننبِّئُكُم بالأخسرينَ أعمالاً الَّذينَ ضلَّ سعيُهُم في الحياةِ الدُّنيا وهُم يحسبونَ أنَّهم يُحسنونَ صُنعًا أُولئكَ الَّذينَ كفرُوا بآياتِ ربِّهم ولقائِهِ فحبطتْ أعمالُهُم فلا نُقيمُ لَهُم يومَ القيامةِ وزنًا).

«البيِّنَـةُ» تعنـي الدَّليـلَ الواضحَ، الجلـيَّ، وهيَ هُنا إشـارةٌ إلى القـرآنِ، ومعاجزِ الرَّسـولِ الأعظمِ(ص)، والدَّلائلِ العقليَّةِ الأُخـرى. ومنَ الواضحِ أنَّ الاستفهامَ في جملةِ:(أَفَمَنْ كانَ...) استفهامٌ إنكاريٌّ، أيْ إنَّ هذينِ الفريقينِ لا يتساويانِ أبدًا.

ولكـنِ مَـنِ الَّذي يُزيِّـنُ أعمالَ السُّـوءِ في أنظارِ عبـدَةِ الهوى، ومُتَّبعيـهِ؟ أهوَ اللهُ سُبحانَهُ، أمْ هُم أنفسُهُم، أمِ الشَّياطينُ؟

ينبغـي أنْ يُقالَ: إنَّها تصحُّ جميعًا؛ لأنَّ التَّزيـينَ نُسبَ إلى الثَّلاثةِ في آياتِ القرآنِ؛ فتقولُ الآيةُ(4) منْ سورةِ النَّملِ:(إنَّ الَّذينَ لا يؤمنونَ بالآخرةِ زيَّنَّا لَهُم أعمالَهُم).

وجـاءَ في آياتٍ عديـدةٍ أُخرى، ومنْ جُملتِهَا الآيةُ(38) مِـنْ سورةِ العنكبوتِ، الَّتي تقولُ:(وزيَّنَ لَهُمُ الشَّيطانُ أعمالَهُم).

وظاهرُ الآيةِ موردِ البحثِ، وبملاحظةِ الجملةِ:(واتَّبعُوا أهواءَهُم) أنَّ هذا التَّزيينَ ناشئٌ عَنِ اتِّبَاعِ الهوى، وقضيَّةُ كونِ الهوى، والشَّهواتِ تسلبُ الإنسانَ القدرةَ على

الحسِّ، والتَّشخيصِ، والإدراكِ الصَّحيحِ للحقائقِ، قضيةٌ يمكنُ إدراكُهَا بوضوحٍ.

إنَّ نسبـةَ التَّزيـينِ إلى الشَّيطـانِ -طبعًا- صحيحـةٌ أيضًا؛ لأنَّهُ هـوَ الَّذي ينصبُ المكائدَ، ويُوسوسُ للإنسانِ أنْ يَلِجَهَا، ويُزيِّنُ لهُ اتِّباعَ الهوى.

وأمَّـا نسبتُـهُ إلى اللهِ سُبحانَهُ؛ فلأنَّهُ مُسبِّبُ الأسبابِ، وإليـهِ يرجعُ كُلُّ سببٍ؛ فهوَ الَّـذي أعطـى النَّارَ الإحراقَ، ومنحَ الهـوى قدرةَ تغطيةِ الحقائـقِ، وإلقاءِ الحُجُبِ عليهـا؛ لِئَلَّا يُدركَهَا مَنْ يتَّبعهُ، وقدْ أظهرَ هذا التَّأثيرَ، وأعلنَهُ مِنْ قبلُ؛ ولِذلكَ فإنَّ أصلَ المسؤوليَّةِ يرجعُ إلى الإنسانِ نفسِهِ.

ويعتقـدُ البعضُ أنَّ جملةَ: (مَنْ كانَ على بيِّنـةٍ مِنْ ربِّهِ) إشـارةٌ إلى النَّبيِّ(ص)، والجملـةُ التَّاليـةُ ناظرةٌ إلى كُفَّارِ مكَّةَ، غيرَ أنَّ الظَّاهرَ هـوَ أنَّ للآيةِ معنًى واسعًا، وهذا مِنْ مصاديقِهِ.

الآيـــــــــــــة 15

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (15)﴾

التَّفسيرُ:

وصفٌ آخرُ للجنَّة:

إنَّ هذه الآيةَ وصفٌ لمصيرِ كُلٍّ مِنَ المؤمنينَ، والكافرينَ؛ فالفئةُ الأُولى الَّذينَ يعملونَ الصَّالحاتِ، والثَّانيةُ زُيِّنَ لهم سوءُ أعمالِهم. وقدْ رفعتْ هذهِ الآيةُ الغطاءَ عَنْ ستَّةِ أنواعٍ مِنْ نِعَمِ أهلِ النَّعيم، وعَنْ نوعينِ مِنْ أنواعِ العذابِ الأليمِ لأصحابِ الجحيم، وهيَ تُحدِّدُ عاقبةَ كلا الفريقين، وتُوضِّحُهَا. تتحدَّثُ الآيةُ عَنْ أربعةِ أنهارٍ في الجنَّةِ، لكُلٍّ مِنْهَا سائلُهُ، ومُحتواهُ الخاصُّ، ثُمَّ تتحدَّثُ عَنْ فواكهِ الجنَّةِ، وأخيرًا عَنْ بعضِ المواهبِ المعنويَّةِ.

تقولُ الآيةُ أوَّلاً: (مَثَلُ الجنَّةِ الَّتي وُعِدَ المُتَّقونَ فيها أنهارٌ مِنْ ماءٍ غيرِ آسِنٍ)[1].

«الآسِنُ» يعني النَّتنَ، وبناءً على هذا؛ فإنَّ (ماءٍ غيرِ آسِنٍ) تعني الماءَ الَّذي لا يتغيَّرُ طعمُهُ، ورائحتُهُ؛ لطولِ بقائِهِ، وغيرُ ذلكَ، وهذا أوَّلُ نهرٍ مِنْ أنهارِ الجنَّةِ، وفيهِ ماءٌ زلالٌ، جارٍ، طيِّبُ الطَّعمِ، والرَّائحةِ.

1. للمفسِّرينَ بحوث كثيرة حول تركيب هذه الآية الشريفة، والأنسب منْها جميعًا أن يُقال: (مثل الجنَّةِ) مبتدأ، وخبره محذوف، والتَّقدير: مثلُ الجنَّةِ الَّتي وُعِدَ المُتَّقونَ جنَّةٌ فيها أنهارٌ، وهذه الآية تشبه -في الحقيقة- الآية (35) مِنْ سورة الرَّعد الَّتي تقول: (مثلُ الجنَّةِ الَّتي وُعِدَ المُتَّقون تجري مِنْ تحتها الأنهارُ).

ثُـمَّ تُضيفُ: (وأنهـارٌ مِنْ لـبنٍ لم يتغيَّرْ طعمُـهُ)؛ وذلكَ أنَّ الجنَّةَ مـكانٌ لا يعتريهِ الفسادُ، ولا تتغيَّرُ أطعمةُ الجنَّةِ بمرورِ الزَّمنِ، وإنَّما تتغيَّرُ الأطعمةُ في هذهِ الحياةِ الدُّنيا؛ لوجودِ أنواعِ الميكروباتِ، الَّتي تُفسدُ الموادَّ الغذائيَّةَ بسرعةٍ.

ثُمَّ تطرَّقتْ إلى ثالثِ نهرٍ مِنْ أنهارِ الجنَّةِ؛ فقالتْ: (وأنهارٌ مِنْ خمرٍ لذَّةٍ للشَّاربينَ).

وأخيرًا تُبيّنُ الآيةُ رابعَ أنهارِ الجنَّةِ بأنَّهُ: (وأنهارٌ مِنْ عسلٍ مصفًّى).

وعلاوةً على هذهِ الأنهارِ المُختلفةِ، الَّتي خُلِقَ كُلٌّ منْها لغرضٍ؛ فقدْ تحدَّثتِ الآيةُ عَنْ فواكـهِ الجنَّةِ في الموهبةِ الخامسةِ؛ فقالـتِ الآيةُ: (ولهم فيها مِنْ كُلِّ الثَّمراتِ)[2]؛ فستُوضـعُ بـينَ أيديهِم، وتحتَ تصرُّفِهِـم كُلُّ الثَّمراتِ، والفواكـهِ المُتنوِّعةِ الطَّعمِ، والرَّائحـةِ، سـواءً الَّتي يمكـنُ تصوُّرُهَا، أو الَّتـي لا يمكنُ أنْ تخطرَ علـى أذهانِنَا اليومَ، ويصعبُ تصوُّرُهَا.

وأخيرًا تتحـدَّثُ عَنِ الموهبةِ السَّادسـةِ الَّتي تختلفُ عَنِ المواهـبِ الماديَّةِ السَّابقةِ، إذْ أنَّ هـذهِ الهبـةَ معنويَّةٌ روحيَّـةٌ؛ فتقولُ: (ومغفرةٌ مِنْ ربِّهِـم) إذْ ستمحو رحمتُهُ الواسعـةُ كُلَّ هفواتِهِـم، وسقطاتِهِـم، وسيمنحُهُـمُ اللهُ الاطمئنـانَ، والهـدوءَ، والرِّضى، ويجعلُهُم مِنَ المرضيِّينَ عِنْدَهُ، والمُحبَّبينَ إليهِ، وسيكونونَ مصداقًا لقولهِ تعالى: (رضيَ اللهُ عَنْهُم ورضُوا عَنْهُ ذلكَ الفوزُ العظيمُ)[3].

وبذلـكَ فـإنَّ المؤمنـينَ الطَّاهرينَ، الصَّالحـينَ يتمتَّعـونَ بأنواعِ المواهـبِ الماديَّةِ، والمعنويَّةِ في الجنانِ الخالدةِ، وفي جوارِ رحمةِ اللهِ.

ولنرَ الآنَ ماذا سيكونُ مصيرُ الفريقِ المُقابلِ للمؤمنينَ، أي الكُفَّارِ؟

2. للجملة محذوف، وللتَّقدير: لهم فيها أنواع مِنْ كُلِّ الثَّمرات.
3. سورة المائدة، 911.

تقــولُ الآيـةُ مُتابعـةً لحديثِهَـا: (كمَـنْ هـوَ خالـدٌ في النَّـارِ وسُقُـوا مـاءً حميمًـا فقطّـعَ أمعـاءَهُـم)[4].

«الأمعـاءُ» جمع «مَعْـي» -على وزنِ سَعْي- و«مِعًا» -على وزنِ غِنًا- وتُطلقُ أحيانًا علـى كُلِّ ما في البطنِ، وتقطيعُهَا إشارةٌ إلى شدَّةِ حرارةِ هذا الشَّرابِ الجهنَّميِّ المُرعبِ، وقوَّةِ إحراقِهِ.

ملحوظاتٌ:

1 - أنهارُ الجنَّةِ الأربعةُ:

يُستفـادُ مِنْ آيـاتِ القرآنِ المجيدِ جيِّدًا أنَّ في الجنَّةِ أنهـارًا، وعيونًا مختلفةً، ولكُلٍّ مِنْها فائدةٌ ولذَّةٌ خاصَّةٌ، وقدْ وردَ ذكرُ أربعةِ نماذجَ مِنْها في الآيةِ المذكورةِ؛ وستأتي نماذجُ أُخرى في سورةِ الدَّهرِ؛ وسنذكرُهَا في تفسيرِهَا، إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

إنَّ التَّعبـيرِ بـ«الأنهارِ» في شأنِ هذهِ الأنواعِ الأربعـةِ، يوحي بأنَّ كُلًّا مِنْها ليسَ نهرًا واحدًا، بل أنهارٌ عديدةٌ.

لقـدْ قُلنا مِـرارًا: إنَّ نعَمَ الجنَّةِ ليسـتْ بالشَّيءِ الَّذي يُمكنُ التَّحـدُّثُ عَنْهُ بألفاظِ محادثاتِنَـا اليوميَّـةِ، في حياتِنَا الدُّنيا؛ فإنَّ هذهِ الألفاظَ قاصـرةٌ عَنْ أنْ تُجسِّدَهَا تمامًـا، أو أنْ تُعبِّـرَ عَنْهَا بمَـا يعكسُ حقيقتَهَا، وكُلُّ ما تقدرُ عليـهِ هوَ أنْ ترسمَ في الأذهانِ شبحًا باهتَ اللَّونِ عَنْ تلكَ الحقائقِ العظيمةِ.

4. لقـد وردت أبحـاث كثيرة في تركيب هـذهِ الآية أيضًا، والأنسب مِنْها جميعًا أنَّ للآية تقديرًا هو: أَفَمَنْ هو خالد في الجنّة الَّتي هذهِ صفاتها كَمَنْ هو خالد في النّار؟.

لقـدْ أشـارتِ الآيةُ -موردُ البحـثِ- إلى أنهارِ الماءِ، واللَّبنِ، والخمـرِ، والعسلِ؛ إذْ يُمكـنُ أنْ يكـونَ الأوَّلُ لرفـعِ العطشِ، والثَّاني كالغـذاءِ، والثَّالثُ يبعـثُ النَّشاطَ، والحيويَّةَ، و أمَّا الرَّابعُ فيُوجِدُ القوَّةَ، واللَّذَّةَ. والطَّريفُ أنَّهُ يُستفادُ مِنْ آياتِ القرآنِ الأُخـرى أنَّ كُلَّ أصحـابِ الجنَّةِ لا يشربـونَ مِنْ كُلِّ هذهِ الأشربةِ، بـلْ أنَّ لها مراتبَ يشـربُ أصحابُ كُلِّ مرتبةٍ مِنَ الأشربةِ الموجـودةِ في درجتِهم؛ فنقرأُ في الآيةِ(28) مِنْ سورةِ المطفِّفينَ:(عينًا يشربُ بِهَا المُقرَّبُونَ).

2 - الشَّرابُ الطَّهورُ:

لا يخفـى أنَّ خمـرَ الجنَّةِ، وشرابَهَا لا علاقةَ لهُ بخمرِ الدُّنيـا المُلَوَّثِ مُطلقًا، بلْ هوَ كَمَـا يصفُهُ القرآنُ في موضعٍ آخرَ:(لا فيها غولٌ ولا هُـمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ)[5]، وليسَ فيهِ إلَّا العقلُ، والنَّشاطُ، واللَّذَّةُ الرُّوحيَّةُ.

3 - أشربةٌ لا يعتريْهَا الفسادُ:

جاءَ في وصفِ أنهارِ الجنَّةِ مـرَّةً أنَّ ماءَهَا(غيرُ آسنٍ)، وأُخرى(لم يتغيَّرْ طعمُهُ)، وهـوَ يوحي بأنَّ أشربةَ الجنَّةِ، وأطعمتَهَا تبقى على طراوتِهَا، وجِدَّتِهَا. ولِمَ لا تكونُ كذلكَ؟ وإنَّما تتغيَّرُ الأطعمةُ، وتفسدُ بفعلِ الميكروباتِ المُفسدةِ، ولولاهَا فإنَّ أطعمةَ الدُّنيا تبقى هيَ الأُخرى على حالتِهَا الأُولى، ولمَّا لم يكنْ للموجوداتِ المُفسدةِ مكانٌ في الجنَّةِ؛ فإنّ كُلَّ أشيائِهَا صافيةٌ، ونظيفةٌ، وطريَّةٌ، طازجةٌ دائمًا.

5. سورة الصافات، 47.

4 – لماذا الفواكهُ؟

لقدْ أكَّدتِ الآيةُ موردُ البحثِ، وكثيرٌ مِنْ آياتِ القرآنِ الأُخرى على الفواكهِ مِنْ بينِ الأطعمـةِ، الفواكهِ المُتنوِّعةِ المذاقِ، وهذا يبيّنُ أنَّ الفاكهةَ أهمُّ أغذيةِ الجنَّةِ، وحتَّى في هذهِ الدُّنيا؛ فإنَّ الفاكهةَ أفضلُ، وأسلمُ غذاءٍ للإنسانِ.

5 – جملةُ (سُقُوا) بصيغةِ الفعلِ المبنيِّ للمجهولِ:

تُوضِّـحُ أنَّ أصحـابَ الجحيـمِ يُسقونَ المـاءَ الحميمَ بالقـوَّةِ، لا بإرادتِهـم، وبدلَ الارتـواءِ في تلـكَ النَّارِ المُحرقةِ؛ فإنَّـهُ يُقطِّعُ أمعاءَهُم، وكما هـيَ طبيعةُ الجحيمِ؛ فإنَّهم يرجعونَ إلى حالتِهِم الأُولى؛ حيثُ لا موتَ هُناكَ.

الآيـــــــــــــات 16 - 19

﴿وَمِنْهُم مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُواْ أَهْوَاءَهُمْ (16) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17) فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (18) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19)﴾

التَّفسيرُ:

ظهرتْ علاماتُ القيامة!

تعكسُ هذه الآياتُ صورةً عَنْ وضعِ المنافقينَ، وطريقِ تعاملِهم معَ الوحيِ الإلهيِّ، وكلماتِ النَّبيِّ الأكرم(ص)، ومسألةِ قتالِ أعداءِ الإسلام، ومحاربتِهم.

وقدْ وردَ الحديثُ حولَ المنافقينَ في السُّورِ المدنيَّةِ كثيرًا، في حينِ لا نرى أثرًا للحديثِ حولَهُم في السُّورِ المكيَّة؛ وذلكَ لأنَّ مسألةَ النِّفاقِ ظهرتْ بعدَ انتصارِ الإسلام وتسلُّمِه السُّلطة، والقوَّة؛ حيثُ أصبحَ المشركونَ في موقعِ ضعف، وانهيار؛ بحيثُ لم يكنْ باستطاعتِهم إظهارُ مخالفتِهم؛ ولذلكَ اضطرُّوا إلى التَّلبُّس بالإسلام؛ ليأمنُوا غضبَ المسلمينَ الحقيقيِّينَ، أمَّا في الباطنِ فإنَّهُم لم يألوا جُهدًا في التَّآمرِ ضدَّ الإسلام، وكانَ يهودُ المدينةِ الَّذينَ كانوا يتمتَّعونَ بقوَّةٍ عسكريَّة، واقتصاديَّةٍ لا يُستهانُ بِهَا، يُعتبرونَ سندًا للمنافقينَ.

وعلى أيِّ حالٍ؛ فقدْ توغَّلَ هؤلاءِ بينَ المسلمينَ المُخلصينَ، وكانوا يحضرُونَ عِنْدَ

النَّبيِّ(صـ)، ويُشاركونَ في صلاةِ الجمعةِ، إلَّا أنَّ تعاملَهُم تجاهَ آياتِ القرآنِ، كانَ يفضحُ ما تنطوي عليهِ سرائرُهُم، وقلوبُهم المريضةُ.

تقـولُ الآيـةُ الأُولى مِـنَ الآياتِ مـوردِ البحثِ: (ومِنْهُم مَـنْ يستمعُ إليـكَ حتَّى إذا خرجُوا مِنْ عندِكَ قالُوا للَّذينَ أُوتُوا العلمَ ماذا قالَ آنفًا)، وكانَ مرادُهُم مِنْ ذلكَ الرَّجـلِ هوَ النَّبيَّ(ص). إنَّ تعبيرَ هؤلاءِ في شأنِ النَّبيِّ(ص)، وكلماتِهِ البليغةِ؛ كانَ مِنَ القُبحِ، والبذاءَةِ إلى درجةٍ تدلُّ على أنَّهم لم يؤمِنوا بالوحيِ السَّماويِّ قطُّ.

«آنفًـا» مِنْ مادَّةِ (أنـف)؛ ولمَّا كانَ للأنفِ بُروزًا مُتميِّزًا في وجـهِ الإنسانِ؛ فإنَّ هذهِ الكلمـةَ تُستعمـلُ في شأنِ أشرافِ القومِ، وكذلكَ تُستعملُ في مـوردِ الزَّمانِ المُتقدِّمِ على زمانِ الحالِ، كما جاءَ في الآيةِ موردِ البحثِ.

ثُـمَّ إنَّ التَّعبـيرَ بـ(الَّذينَ أُوتُوا العلـمَ) يُوحي بأنَّ إحدى علامـاتِ المؤمنِ امتلاكُهُ الوعيَ الكافي؛ فكما أنَّ العلمَ مصدرُ الإيمانِ؛ فكذلكَ هوَ وليدُ الإيمانِ، وحاصلُهُ.

إلَّا أنَّ القرآنَ الكريمَ قدْ أجابَهُم جوابًا قاطعًا؛ فقالَ: إنَّ كلامَ النَّبيِّ(ص) لم يكنْ غامضًا، ولا مُعقَّدًا، بلْ (أُولئكَ الَّذينَ طبعَ اللّهُ على قلوبِهِم واتَّبعُوا أهواءَهُم).

وفي الحقيقـةِ؛ فـإنَّ الجملـةَ الثَّانيةَ علَّـةٌ للجملـةِ الأُولى، أيْ إنَّ اتِّبـاعَ الهوى يسلبُ الإنسانَ القُدرةَ على إدراكِ الحقائقِ، وتمييزِهَا، ويُلقي الحجابَ على قلبِهِ؛ بحيثُ أنَّ قلوبَ مُتَّبِعي الهوى تُصبحُ كالظَّرفِ المختومِ؛ فلا يدخلُهُ شيءٌ، ولا يخرجُ مِنْهُ شيءٌ.

ويقـفُ المؤمنونَ الحقيقيُّونَ في الطَّرفِ المُقابلِ لهؤلاءِ، وعَنْهُم تتحدَّثُ الآيةُ التَّاليةُ؛ فتقولُ: (والَّذينَ اهتدَوا زادَهُم هُدًى وآتاهُمْ تقواهُم).

نعمْ، لقدْ خطا هؤلاءِ الخطوةَ الأُولى بأنفسِهم، واستعملوا عقولَهُم وفطرتَهُم في هذا المسيرِ؛ ثُمَّ أخذَ اللهُ سُبحانَهُ بيدِهم كما وعدَهُم مِنْ قبلُ؛ فزادَهُم هُدًى إلى هُداهم، وألقى نورَ الإيمانِ في قلوبِهم، وشرحَ صدورَهُم، ورزقَهُم حُسنَ الفكرةِ، والنَّظرِ.

هـذا مِـنَ النَّاحيةِ العقائديَّةِ، وأمَّا مِـنَ النَّاحيةِ العمليَّةِ؛ فإنَّـهُ سُبحانَهُ يُحيي فيهِم روحَ التَّقوى؛ حتَّى أنَّهم يشمئزُّونَ مِنَ الذَّنبِ، والمعصيةِ، ويعشقونَ الطَّاعةَ، والعملَ الصَّالحَ.

إنَّ هـؤلاءِ يقفونَ مِنَ النَّاحيتينِ في الطَّرفِ المُقابـلِ للمنافقينَ الَّذينَ أشارتْ إليهِمُ الآيةُ السَّابقةُ؛ فقدْ طُبعَ على قلوبِهم؛ فَلَا يفقهونَ شيئًا مِنْ جهةٍ، ومِنْ جهةٍ أُخرى فإنَّهَم يتَّبعونَ أهواءَهُم في العملِ، أمَّا المؤمنونَ؛ فإنَّ هدايتَهُم تعظمُ يومًا بعدَ يومٍ، ويتضاعفُ تقواهُم في مجالِ العملِ.

وتُحـذِّرُ الآيةُ التَّاليةُ أُولئكَ المُستهزئينَ الَّذيـنَ لا إيمانَ لَهُم؛ فتقولُ: (فهلْ ينظرونَ إلَّا ساعةً أنْ تأتيَهُم بغتةً فقدْ جاءَ أشراطُهَا فأنَّى لهمْ إذا جاءتهُم ذكراهُم).

أجـلْ، إنَّ هـؤلاءِ لم يُذعنُوا للحقِّ؛ حيـثُ كانَ الإيمانُ واجبًا عليهـم، ومفيدًا لهم، بـلْ كانـوا في طُغيانِهِـم يعمهـونَ، وبآيـاتِ اللهِ يستهزئـونَ، غـيرَ أنَّهم يـومَ يرونَ الحوادثَ المرعبةَ، وبدايةَ القيامةِ تهزُّ العالمَ، وتزلزلُهُ؛ يُصيبهمُ الفزعُ، ويُظهرونَ خضوعَهُم، ويؤمنونَ، ولا ينفعُهُم يومئذٍ إيمانُهُم، وخضوعُهُم.

إنَّ هـذهِ العبارةَ تشبهُ تمامًـا أنْ نقولَ لإنسانٍ: أَتنتظرُ حتَّـى يشرفَ بكَ مرضُكَ علـى المـوتِ، ولا ينفعُ حينئـذٍ علاجٌ، ثُمَّ تدعـو الطَّبيبَ، وتأتي بالـدَّواءِ؟ انهضْ، وأسـرعْ إلى المُعالجةِ، وتناولِ الدَّواءِ، قبلَ أنْ تفقدَ هذهِ الفرصةَ؛ فإنَّ السَّعيَ الآنَ ذو فائدةٍ، وبعدَ اليومِ لا ينفعُ.

«الأشراطُ» جمع (شَرَط)، وهي العلامةُ، وعلى هذا فإنَّ أشراطَ السَّاعةِ إشارةٌ إلى علاماتِ اقترابِ القيامةِ.

وللمفسِّريـنَ أقوالٌ كثيرةٌ حولَ المُرادِ مِنْ علاماتِ اقترابِ القيامةِ هُنَا؛ حتَّى كُتبتْ رسائلُ مختصرةٌ، ومفصَّلةٌ، في هذا البابِ.

إلَّا أنَّ الكثـيرَ يعتقدونَ أنَّ المرادَ مِنْ «أشراطِ السَّاعةِ» في الآيةِ -موردِ البحثِ- هوَ ظهـورُ شخصِ النَّبـيِّ الأكرمِ (ص)، ويشهدُ لذلكَ الحديثُ المـرويُّ عنهُ (ص) أنَّهُ قالَ: «بُعثتُ أنا والسَّاعة كهاتينِ» وضمَّ إصبعيهِ السَّبابةَ، والوسطى[1].

وعـدَّ البعضُ مسألةَ «شقِّ القمرِ»، وقسمًا آخرَ مِنْ حـوادثِ عصرِ النَّبيِّ (ص) مِنْ أشراطِ السَّاعةِ أيضًا.

لقـدْ وردتْ أحاديـثُ عديـدةٌ في هـذا البـابِ، وقـدْ اعتُبِرَ شيـوعُ كثيرٍ مـنَ المعاصي بـينَ النَّاسِ بالـذَّاتِ مِنْ علاماتِ اقـترابِ القيامـةِ، كالحديثِ الَّذي يرويـه «الفتَّالُ النيسابوريُّ» (ره) في روضةِ الواعظينَ، عَنِ النَّبيِّ (ص) أنَّهُ قالَ: «مِنْ أشراطِ السَّاعةِ أنْ يرفـعَ العلمُ، ويظهرُ الجهـلُ، ويُشربُ الخمرُ، ويفشو الزِّنا»[2]؛ بلْ، حتَّى الحوادثِ المُهمَّةِ والمؤثِّرةِ، كقيامِ المهديِّ -أرواحُنَا لهُ الفداءُ- عُدَّتْ مِنْ أشراطِ السَّاعةِ.

لكنْ ينبغي أنْ نذكرَ أنَّنا نبحثُ تارةً في أشراطِ السَّاعةِ بصورةٍ مُطلقةٍ؛ فنسألُ: ما هيَ علاماتُ اقترابِ القيامةِ؟ وأُخرى نبحثُ في موردِ خصوصِ الآيةِ.

والمطلبُ في موردِ الآيةِ هوَ ما قلناهُ.

1. مجمع البيان، تفسير القرطبي، تفسير في ظلال القرآن، وتفاسير أخرى، في ذيل الآيات مورد البحث، بتفاوت يسير في التعبير.
2. نور الثقلين، المجلَّد 5، صفحة 37.

وأمَّا حـولَ علاماتِ اقترابِ القيامةِ، بصورةٍ مُطلقةٍ؛ فقـدْ وردتْ بحوثٌ، وروايـاتٌ كثيرةٌ في الكتبِ الإسلاميَّةِ المعروفةِ، وسنُشيرُ إليها فيما يأتي[3].

هلْ أنَّ ظهورَ النَّبيِّ مِنْ علاماتِ قُربِ القيامةِ؟

يطـرحُ هُنـا سـؤالٌ، وهوَ: كيـفَ عدُّوا ظهـورَ النَّبيِّ(صـ) مِنْ علامـاتِ اقترابِ القيامةِ، وقد مرَّ إلى الآنَ خمسةَ عشرَ قرنًا، ولا أثرَ للقيامةِ؟

والإجابةُ عَنْ هذا السُّؤالِ تتَّضحُ بملاحظةٍ واحدةٍ، وهيَ أنَّنا يجبُ أنْ نقارنَ بينَ ما مرَّ مِنَ الدُّنيا، وما بقيَ مِنْها، وسيظهرُ مِنْ خلالِ هذهِ المقارنةِ أنَّ ما بقيَ مِنْ عمرِ الدُّنيا قليلٌ جدًّا، وهو سريعُ الانقضاءِ، كما وردَ في حديثٍ عَنِ النَّبيِّ الأكرمِ(ص)، أنَّـهُ كانَ يخطبُ في أصحابِهِ قُبيلَ الغروبِ؛ فقالَ: «والَّذي نفسُ مُحمَّدٍ بيدِهِ ما مثلُ ما مضى مِنَ الدُّنيا فيما بقيَ مِنْها إلَّا مثلَ ما مضى مِنْ يومِكُم هذا فيما بقيَ مِنْهُ، وما بقيَ مِنْهُ إلَّا اليسيرُ»[4].

وتقولُ آخرُ آيةٍ مِنْ هذهِ الآياتِ، وكاستخلاصٍ لنتيجةِ البحوثِ الَّتي وردتْ في الآياتِ السَّابقـةِ حـولَ الإيمانِ، والكفرِ، ومصـيرِ المؤمنينَ، والكُفَّارِ: (فاعلـمْ أنَّهُ لا إلهَ إلَّا اللهُ) أيْ: اثبـتْ علـى خطِّ التَّوحيدِ؛ فإنَّـهُ الدَّواءُ الشَّافي، واعلـمْ أنَّ أفضلَ وسيلةٍ للنَّجاةِ هوَ التَّوحيدُ الَّذي بيَّنتِ الآياتُ السَّالفةُ آثارَهُ.

وبنـاءً على هـذا؛ فلا يعني هذا الكلامُ أنَّ النَّبيَّ(ص) لم يكـنْ عالمًا بالتَّوحيدِ؛ بلِ

3. يتّضـح ممّا قلناه أنَّ ليس المراد مِنْ جملة: (فقـد جاء أشراطها) تحقق كلّ علامات القيامة وظهورها في عصر النَّبيِّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بل المراد أنَّ بعضها قد ظهر، وهو يخبر عَنِ اقتراب القيامة، وإنَّ كانت بعض الأشراط ستتحقق وتتّضح فيما بعد.
4. روح المعاني، المجلَّد 26، صفحة 48.

المُرادُ الاستمرارُ في هذا الخطِّ، وهذا يشبهُ تمامًا ما ذكروهُ في تفسيرِ الآيةِ: (اهدنا الصِّراطَ المُستقيمَ) في سورةِ الحمدِ، بأنَّها لا تعني عدمَ الهدايةِ مِنْ قبلُ، بلْ تعني: ثبِّتْنَا على خطِّ الهدايةِ.

ويحتملُ أيضًا أنْ يكونَ المرادُ التَّدبُّرَ في أمرِ التَّوحيدِ أكثرَ، والارتقاءَ إلى المقاماتِ الأسمى؛ حيثُ إنَّهُ كُلَّما تدبَّرَ البشرُ فيهِ أكثرَ، وطالعوا آياتِ اللهِ بدقَّةٍ أكبرَ؛ فإنَّهم سيصلونَ إلى مراتبَ أرقى، والتَّدبُّرُ بما قيلَ في الآياتِ السَّالفةِ في موردِ الإيمانِ والكفرِ، عاملٌ يؤثِّرُ بحدِّ ذاتِهِ في زيادةِ الإيمانِ والكفرِ.

والتَّفسيرُ الثَّالثُ أنَّ المرادَ: الجوانبُ العمليَّةُ للتَّوحيدِ، أيْ: اعلمْ أنَّ الملجأَ، والمأوى الوحيدَ في العالمِ هوَ اللهُ تعالى؛ فالتجئْ إليهِ، ولا تطلبْ حلَّ معضلاتكَ إلَّا مِنْهُ، ولا تخفْ سيلَ المشاكلِ، ولا تخشَ كثرةَ الأعداءِ.

ولا تَنافيَ بينَ هذهِ التَّفاسيرِ الثَّلاثةِ، فَمِنَ المُمكنِ أنْ تُجمعَ في معنى الآيةِ.

وبعدَ هذهِ المسألةِ العقائديَّةِ؛ تعودُ الآيةُ إلى مسألةِ التَّقوى، والعفَّةِ عَنِ المعصيةِ؛ فتقولُ: (واستغفرْ لذنبكَ وللمؤمنينَ والمؤمناتِ).

لا يخفى أنَّ النَّبيَّ(ص) لم يرتكبْ ذنبًا قطُّ؛ بحكمِ مقامِ العصمةِ، وأمثالُ هذهِ التَّعابيرِ إشارةٌ إلى تركِ الأَولَى؛ فإنَّ حسناتِ الأبرارِ سيِّئاتُ المُقرَّبينَ، أو إلى أنَّهُ قدوةٌ للمسلمينَ. وجاءَ في حديثٍ: أنَّ حذيفةَ بنَ اليمانِ يقولُ: كنتُ رجلاً ذربَ اللِّسانِ على أهلي، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ إنِّي لأخشى أنْ يُدخلني لساني في النَّارِ، فقالَ(ص): «فأينَ أنتَ مِنَ الاستغفارِ؟ إنِّي لأستغفرُ اللهَ في اليومِ مائةَ مرَّةٍ»[5].

5. مجمع البيان، المجلَّد 9، صفحة 102، ذيل الآيات مورد البحث.

وجاءَ في بعضِ الرِّواياتِ أنَّهُ كان يستغفرُ في اليومِ سبعينَ مرَّةً.

إذا كانَ الآخرونَ يستغفرونَ ممَّا ارتكبوا منَ المعاصي، والذُّنوب؛ فإنَّ النَّبيَّ الأكرمَ (ص) يستغفرُ اللّه منْ تلكَ اللَّحظةِ الَّتي شُغِلَ فيها عَنْ ذكرِه، أو أنَّهُ تركَ فِعْلَ الأحسنِ، وفَعَلَ الحسنَ. وهُنا نكتةٌ جديرةٌ بالانتباهِ، وهيَ أنَّ اللّه سُبحانَهُ قدْ شفعَ للمؤمنينَ، والمؤمناتِ، وأمرَ نبيَّهُ (ص) أنْ يستغفرَ لهم لِتَسعَهُم رحمتُهُ، ومِنْ هُنا يَتَبَيَّنُ عمقُ مسألةِ «الشَّفاعةِ» في الدُّنيا، والآخرةِ، وكذلكَ تَتَبَيَّنُ أهميةُ التَّوسُّلِ، وكونِهِ مشروعًا.

ويقولُ سُبحانَهُ في ذيلِ الآيةِ، وكتبيانٍ للعلَّة: (واللّه يعلمُ مُتقلَّبَكُم ومثواكُم)؛ فهوَ يعلمُ ظاهرَكُم، وباطنَكُم، كتمانَكُم، وعلانيتَكُم، سرَّكُم، ونجواكُم، بلْ ويعلمُ حتَّى نيَّاتِكُم، وما تُوسوسُ بهِ أنفسُكُم، ويخطرُ على أذهانِكُم، وما يجري في ضمائرِكُم، ويعلمُ حركاتِكُم، وسكناتِكُم؛ ولهذا وجبَ عليكم التَّوجُّهُ إليهِ، ورفعُ الأكفِّ بينَ يديهِ، وطلبُ العفوِ، والمغفرةِ، والرَّحمةِ منْهُ.

«المُتقلَّبُ»: هوَ المكانُ الَّذي يكثرُ التَّردُّدِ عليهِ، و«المثوى» هوَ محلُّ الاستقرارِ[6].

والظاهرُ أنَّ لهاتينِ الكلمتينِ معنًى واسعًا يشملُ كُلَّ حركاتِ ابنِ آدمَ وسكناتِهِ، سواءً الَّتي في الدُّنيا، أمْ في الآخرةِ، في فترةِ كونِهِ جنينًا، أمْ كونِهِ منْ سكَّانِ القبورِ، وإنْ كانَ كثيرٌ منَ المُفسِّرينَ قدْ ذكرَ لهُمَا معانيَ مُحدَّدَةً؛ فقالَ بعضُهُم: إنَّ المُرادَ حركةُ الإنسانِ في النَّهارِ، وسكونِهِ في اللَّيلِ.

وقالَ آخرونَ: إنَّ المُرادَ مسيرُ الإنسانِ في الحياةِ الدُّنيا، واستقرارُهُ في الآخرةِ.

6. بناءً على هذا، فإنَّ (متقلّب) اسم مفعول جاء هنا بمعنى المكان، إلَّا أنَّ جماعة يعتبرونه مصدرًا ميميًّا يعني الإنتقال من حال إلى حال. غير أنَّ المعنى الأوّل هو الأنسب بملاحظة قرينة مقابلته بالمثوى الَّذي لا ريب في كونه اسم مكان.

وقالَ بعضٌ آخرُ: إنَّ المُرادَ تقلُّبُ الإنسانِ في أصلابِ الآباءِ، وأرحامِ الأمَّهاتِ، وثباتُهُ في القبرِ. وأخيرًا ذكرَ البعضُ أنَّ المُرادَ: حركاتُهُ في السَّفرِ، وسكناتُهُ في الحضرِ.

ولكنْ كما قُلنا؛ فإنَّ للآيةِ معنًى واسعًا، يشملُ كُلَّ هذهِ المعاني.

بحـــــــــث:

ماهيَ أشراطُ السَّاعةِ؟

قُلنا سابقًا: إنَّ الأشراطَ جمعُ شرطٍ، وهيَ العلامةُ، ويُقالُ لعلاماتِ اقترابِ القيامةِ: أشراطُ السَّاعةِ، وقدْ بُحثتْ كثيرًا في مصادرِ الشِّيعةِ، والسُّنَّةِ، ولم يُشرِ القرآنُ إليها إلَّا في هـذهِ الآيةِ. ومِنْ أجمعِ الأحاديثِ، وأكثرِهَـا تفصيلاً في هذا البابِ، الحديثُ الَّـذي رواهُ ابنُ عبّاسٍ عَنِ النَّبـيِّ الأكرمِ(ص) في قضيَّةِ حجَّةِ الـوداعِ، وهوَ يُعلِّمُنا كثيرًا مِنَ المسائلِ، ويحتوي على نكاتٍ، ودقائقَ كثيرةٍ؛ ولهذا نوردُهُ كاملاً:

قـالَ ابنُ عبَّاسٍ: حَجَجْنَا معَ رسـولِ اللهِ(ص) حجَّةَ الوداعِ، وهيَ آخرُ حجَّةٍ حجَّها رسـولُ اللهِ(ص) في حياتـهِ فأخذَ بحلقةِ بابِ الكعبةِ؛ ثُمَّ أقبلَ علينا بوجهِهِ؛ فقالَ: «ألا أخبرُكُـم بأشراطِ السَّاعـةِ»؟ فكانَ أدنى النَّاسِ مِنْهُ يومئـذٍ سلمانُ رحمةُ اللهِ عليهِ؛ فقالَ: بلى يا رسولَ اللهِ.

قالَ(صـ): «إنَّ مِنْ أشراطِ السَّاعةِ إضاعةَ الصَّلواتِ، واتِّباعَ الشَّهواتِ، والميلَ مع الأهـواءِ، وتعظيمَ أصحابِ المالِ، وبيعَ الدِّينِ بالدُّنيا، فعِنْدَهَا يُذابُ قلبُ المؤمنِ في جوفِهِ كما يُذابُ الملحُ في الماءِ مِمَّا يرى مِنَ المُنكرِ فلا يستطيعُ أنْ يُغيِّرَهُ».

قالَ سلمانُ: وإنَّ هذا لكائنٌ يا رسولَ اللّهِ؟

قالَ: «إيْ والَّذي نفسي بيدِهِ.»

يا سلمانُ: إنَّ عِنْدَهَا يليْهِم أمراءُ جورةٌ، ووزراءُ فسقةٌ، وعرفاءُ ظلمةٌ، وأمناءُ خونةٌ».

فقالَ سلمانُ: وإنَّ هذا لكائنٌ يا رسولَ اللّهِ؟

قالَ: «إيْ والَّذي نفسي بيدِهِ.»

يـا سلمـانُ: إنَّ عِنْدَهَا يكونُ المنكـرُ معروفًا، والمعـروفُ مُنكرًا، ويُؤتمـنُ الخائنُ، ويُخوَّنُ الأمينُ، ويُصدّقُ الكاذبُ، ويُكذَّبُ الصَّادقُ».

قالَ سلمانُ: وإنَّ هذا لكائنٌ يا رسولَ اللّهِ؟

قالَ: «إيْ والَّذي نفسي بيدِهِ.

يـا سلمـانُ: فعِنْدَهَا تكونُ إمـارةُ النِّساءِ، ومشـاورةُ الإماءِ، وقعـودُ الصِّبيانِ على المنابرِ، ويكونُ الكذبُ ظرفًا، والزَّكاةُ مغرمًا، والفيءُ مغنمًا، ويجفو الرَّجلُ والديهِ، ويبرُّ صديقَهُ، ويطلعُ الكوكبُ المُذنَّبُ».

قالَ سلمانُ: وإنَّ هذا لكائنٌ يا رسولَ اللّهِ؟

قالَ: «إيْ والَّذي نفسي بيدِهِ.»

يـا سلمـانُ: وعِنْدَهَا تشاركُ المرأةُ زوجَهَـا في التِّجارةِ (ويبـذلُ كُلٌّ مِنْهُما قُصارى جُهـدِ خارجَ المنزلِ لتحصيـلِ المالِ)، ويكونُ المطرُ غيضًـا، ويغيضُ الكرام غيضًا، ويُحتقرُ الرَّجلُ المُعسرُ، فعِنْدَهَا تُقاربُ الأسواقُ، قالَ هذا: لم أبعْ شيئًا، وقالَ هذا:

لم أربحْ شيئًا، فلا ترى إلَّا ذامًّا للّهِ».

قال سلمانُ: وإنَّ هذا لكائن يا رسول اللّه؟

قالَ: «إيْ والَّذي نفسي بيدِهِ.»

يـا سلمـانُ: فعِنْدَهَـا يليْهِم أقـوامٌ إنْ تكلَّمُـوا قتلوهُـم، وإنْ سكتـوا استباحُوهُم، ليستأثـرونَّ بفيئِهِم، وليطؤنَّ حرمتَهُم، وليسفكنَّ دماءَهُـم، وليملؤنَّ قلوبَهُم دغلاً ورعبًا؛ فلا تراهُم إلَّا وجلينَ، خائفينَ، مرعوبينَ، مرهوبينَ».

قالَ سلمانُ: وإنَّ هذا لكائنٌ يا رسولَ اللّهِ؟

قالَ: «إيْ والَّذي نفسي بيدِهِ.»

يـا سلمـانُ: إنَّ عِنْدَهَا يؤتـى بشيء مِنَ المشـرق، وشيء مِـنَ المغرب (فقوانين مِنَ الشـرق، وقوانين مِنَ الغرب) يلون أمّتي، فالويـل لضعفاء أمّتي مِنْهُم، والويل لهم مِـنَ اللّه، لا يرحمون صغـيرًا، ولا يوقِّرون كبيرًا، ولا يتجافـون عَنْ مسيء، جثّتهم جثة الآدميين، وقلوبهم قلوب الشياطين».

قالَ سلمانُ: وإنَّ هذا لكائنٌ يا رسولَ اللّهِ؟

قالَ: «إيْ والَّذي نفسي بيدِهِ.»

يـا سلمانُ: وعِنْدَهَا يكتفي الرِّجالُ بالرِّجالِ، والنِّساءُ بالنِّساءِ، ويُغارُ على الغلمانِ، كمـا يُغارُ على الجاريةِ في بيتِ أهلِهَا، وتشبَّهُ الرِّجـالُ بالنِّساءِ، والنِّساءُ بالرِّجالِ، وتركبُ ذواتُ الفروجِ السُّروجَ (ويُظهرْنَ أنفسهنَّ)، فعليهنَّ مِنْ أُمَّتِي لعنةُ اللّهِ».

قالَ سلمانُ: وإنَّ هذا لكائنٌ يا رسولَ اللّهِ؟

قالَ: «إيْ والَّذِي نفسي بيدِهِ.»

يـا سلمـانُ: إنَّ عِنْدَهَـا تُزخـرفُ المساجـدُ كمـا تزخـرفُ الكنائسُ، وتُحلَّـى المصاحـفُ (دونَ أنْ يُعمـلَ بهـا)، وتطـولُ المنـاراتُ، وتكـثُرُ الصُّفـوفُ، قلـوبٌ متباغضةٌ، وألسنٌ مختلفةٌ».

قالَ سلمانُ: وإنَّ هذا لكائنٌ يا رسولَ اللهِ؟

قالَ: «إيْ والَّذِي نفسي بيدِهِ.»

يا سلمانُ: وعِنْدَهَا تُحلَّى ذكورُ أُمَّتي بالذَّهبِ، ويلبسونَ الحريرَ والدِّيباجَ، ويتَّخذونَ جلودَ النُّمورِ صفافًا».

قال سلمان: وإنَّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: «إي والَّذِي نفسي بيده.»

يا سلمانُ: وعِنْدَهَا يظهرُ الزِّنا، ويتعاملونَ بالعينةِ والرُشا، ويُوضعُ الدِّينُ، وتُرفعُ الدُّنيا».

قال سلمانُ: وإنَّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: «إي والَّذِي نفسي بيده.»

يـا سلمـانُ: وعِنْدَهَا يكثرُ الطَّلاقُ؛ فلا يُقامُ للهِ حدٌّ، ولـنْ يضرُّوا اللهَ شيئًا (وإنَّما يضرُّونَ أنفسَهُم)».

قالَ سلمانُ: وإنَّ هذا لكائنٌ يا رسولَ اللهِ؟

قالَ: «إيْ والَّذِي نفسي بيدِهِ.»

يا سلمان: وعِنْدَهَا تظهر القينات والمعازف، وتليهم أشرار أُمّتي».

قالَ سلمانُ: وإنَّ هذا لكائنٌ يا رسولَ اللّهِ؟

قالَ: «إيْ والَّذي نفسي بيدِهِ.»

يـا سلمانُ: «وعِنْدَهَا يحجُّ أغنياءُ أُمَّتي للنُّزهة، ويحجُّ أوساطُهَا للتِّجارة، ويحجُّ فقراؤهم للرِّياءِ والسُّمعة؛ فعِنْدَهَا يكونُ أقوامٌ يتعلَّمُونَ القرآنَ لغيرِ اللّهِ، ويتَّخذونَهُ مزاميرَ، ويكونُ أقوامٌ يتفقَّهُونَ لغيرِ اللّهِ، ويكثرُ أولادُ الزِّنا، ويتغنَّونَ بالقرآنِ، ويتهافتونَ بالدُّنيا».

قالَ سلمانُ: وإنَّ هذا لكائنٌ يا رسولَ اللّهِ؟

قالَ: «إيْ والَّذي نفسي بيدِهِ.»

يا سلمانُ: ذاكَ إذا انْتُهكت المحارمُ، واكتُسبت المآثمُ، وسُلِّطَ الأشرارُ على الأخيارِ، ويفشـو الكذبُ، وتظهرُ اللَّجاجةُ، وتفشو الفاقةُ، ويتباهونَ في اللِّباسِ، ويمطرونَ في غيرِ أوانِ المطرِ، ويستحسنونَ الكوبةَ والمعازفَ، ويُنكرونَ الأمرَ بالمعروفِ، والنَّهيَ عَنِ المُنكـرِ؛ حتَّى يكونَ المؤمنُ في ذلكَ الزَّمانِ أذلَّ مِنَ الأمةِ، ويظهرُ قرَّاؤهم وعبَّادُهم فيما بينَهُمُ التَّلاومَ، فأولئكَ يُدعونَ في ملكوتِ السَّماواتِ الأرجاسَ الأنجاسَ».

قالَ سلمانُ: وإنَّ هذا لكائنٌ يا رسولَ اللّهِ؟

قالَ: «إيْ والَّذي نفسي بيدِهِ.»

يـا سلمانُ: فعِنْدَهَـا لا يخشى الغنيُّ على الفقيرِ؛ حتَّـى أنَّ السَّائلَ يسألُ في النَّاسِ فيما بينَ الجُمعتينِ لا يُصيبُ أحدًا يضعُ في كفِّهِ شيئًا».

قالَ سلمانُ: وإنَّ هذا لكائنٌ يا رسولَ اللّهِ؟

قالَ: «إيْ والَّذِي نفسي بيدِهِ.»

يا سلمانُ: فعِنْدَهَا يتكلَّمُ الرُّوَيبضةُ».

قالَ سلمانُ: ما الرُّوَيبضةُ يا رسولَ اللّهِ فداكَ أبي وأُمِّي؟

قالَ: «يتكلَّمُ في أمرِ العامَّةِ مَنْ لم يكنْ يتكلَّمُ، فلم يلبثوا إلَّا قليلاً حتَّى تخورُ الأرضُ خورةً، فلا يظنُّ كُلُّ قومٍ إلَّا أنَّها خارَت في ناحيتِهِم؛ فيمكثونَ ما شاءَ اللّهُ، ثُمَّ يمكثونَ في مكثِهِم، فتُلقي لهمُ الأرضُ أفلاذَ أكبادِهَا» قالَ: «ذهبًا وفضَّةً»، ثُمَّ أومأَ بيدِهِ إلى الأساطينِ؛ فقالَ: مثلَ هذا، فيومئذٍ لا ينفعُ ذهبٌ ولا فضَّةٌ -ويحلُّ أمرُ اللّهِ- فهذا يعني معنى قولِهِ: (فقدَ جاءَ أشراطُهَا)[7].

7. تفسير علي بن إبراهيم طِبقًا لنقل نور الثقلين، وتفسير الصافي، ذيل الآية مورد البحث.

الآيـــــــــات 20 - 24

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (20) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (21) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (23) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24)﴾

التَّفسيرُ:

يخافونَ حتَّى مِن اسمِ الجهادِ!

تُبيّنُ هذهِ الآياتُ المواقفَ المختلفةَ للمؤمنينَ، والمنافقينَ تجاهَ الأمرَ بالجهادِ، تكملةً للأبحاثِ الَّتي مرَّتْ في الآياتِ السَّابقةِ، حولَ هذينِ الفريقينِ.

تقولُ الآيةُ الأُولى: (ويقولُ الَّذينَ آمنُوا لولا نُزِّلَتْ سورةٌ)، سورةٌ يكونَ فيها أمرٌ بالجهادِ، يُوضِّحُ واجبَنَا تجاهَ الأعداءِ القُساةِ، الجلَّادينَ، الَّذينَ لا منطقَ لَهُم... سورةٌ تبعثُ آياتُهَا نورَ الهدايةِ في قلوبِنَا، وتُضيءُ أرواحَنَا بنورِهَا الوهَّاجِ. هذا حالُ المؤمنينَ.

وأمَّا المُنافقونَ: (فإذا أُنزلتْ سورةٌ مُحكمةٌ وذُكرَ فيها القتالُ رأيتَ الَّذينَ في قلوبِهِم مرضٌ ينظرونَ إليكَ نظرَ المغشيِّ عليه مِنَ الموتِ).

فعندَ سماعِ اسمِ الحربِ؛ يصيبُهُم الهلعُ، ويضطربُ كيانُهُم أجمعُ، وتتوقَّفُ عقولُهُم عَنِ التَّفكيرِ، وتتسمَّرُ عيونُهُم، وينظرونَ إليكَ كمَنْ يُوشكُ على الموتِ، وهذا أبلغُ، وأروعُ تعبيرٍ عَنْ حالِ المنافقينَ الجبناءِ الخائفينَ.

إنَّ سببَ اختلافِ تعاملِ المؤمنينَ، والمنافقينَ معَ أمرِ الجهادِ، ينبعُ مِنْ أنَّ الفريقَ الأوَّلَ قدْ علَّقُوا آمالَهُم باللهِ سُبحانَهُ؛ لإيمانِهم القويِّ بهِ؛ فهُمْ يرجُونَ عنايتَهُ، ولُطفَهُ، ونُصرتَهُ، ولا خوفَ لديهِم مِنَ الشَّهادةِ في سبيلِهِ. إنَّ ميدانَ الجهادِ بالنِّسبةِ إلى هؤلاءِ ميدانُ إظهارِ عشقِهِم لمحبوبِهِم، ميدانُ الشَّرفِ، والفضيلةِ، ميدانُ تفجُّرِ الاستعدادتِ، والقابليَّاتِ، وهوَ ميدانُ الثَّباتِ، والمُقاومةِ، والانتصارِ، ولا معنى للخوفِ في مثلِ هذا الميدانِ.

إلَّا أنَّهُ بالنِّسبةِ إلى المنافقينَ ميدانُ موتٍ، وفناءٍ، وتعاسةٍ، ميدانُ هزيمةٍ، ومُفارقةٍ لذائذِ الدُّنيا، وهوَ أخيرًا ميدانٌ مظلمٌ، يعقبُهُ مُستقبلٌ مُرعبٌ، غامضٌ! والمُرادُ مِن «السُّورةِ المُحكمةِ» -باعتقادِ بعضِ المُفسِّرينَ- هيَ السُّورُ الَّتي ذُكرتْ فيها مسألةُ الجهادِ.

لكنْ لا دليلَ على هذا التَّفسيرِ، بلِ الظَّاهرُ أنَّ «المُحكمَ» هنا بمعنى المُستحكمِ، والثَّابتِ، والقاطعِ، والخالي مِنْ أيِّ غموضٍ، أو إبهامٍ؛ حيثُ يقعُ المُتشابهُ في مقابلةٍ أحيانًا، ولمَّا كانتْ آياتُ الجهادِ تتمتَّعُ عادةً بحزمٍ استثنائيٍّ؛ فإنَّها تنسجمُ معَ مفهومِ هذا اللَّفظِ أكثرَ، إلَّا أنَّها ليستْ مُنحصرَةً فيهِ. والتَّعبيرُ بـ(الَّذينَ في قلوبِهِم مرضٌ) تعبيرٌ يُستعملُ في لسانِ القرآنِ، في شأنِ المنافقينَ عادةً، وما احتملَهُ بعضُ المُفسِّرينَ مِنْ أنَّ المُرادَ ضعفاءُ الإيمانِ لا ينسجمُ معَ سائرِ آياتِ القرآنِ، بلْ ولا معَ الآياتِ السَّابقةِ لهذهِ الآياتِ، والَّتي بعدَهَا، تلكَ الَّتي تتحدَّثُ جميعًا عَنِ المنافقينَ. وعلى أيَّةِ حالٍ؛ فإنَّ الآيةَ تُضيفُ في النِّهايةِ جملةً قصيرةً؛ فتقولُ: (فأَوْلَى لَهُم).

إنَّ جملةَ (أَوْلَى لَهُم) تُعبِّرُ في الأدبِ العربيِّ عَنِ التَّهديدِ، واللَّعنةِ، وتمنِّي التَّعاسةِ، والفناءِ للآخرِ[1].

1. اعتقد جماعة أنَّ معنى الجملة يصبح: يليه مكروه، وهو يعادل معنى ويل لهم.

وفسَّرَهَــا البعضُ بأنَّها تعني: الموتُ أَوْلَى لَهُم، ولا مانعَ مِنَ الجمعِ بينَهَا كما أوردْنَا في تفسيرِ الآيةِ. وتُضيفُ الآيةُ التَّاليةُ: (طاعةٌ وقولٌ معروفٌ)[2].

إنَّ التَّعبيرَ بـ(قولٌ معروفٌ) يمكنُ أنْ يكونَ في مقابلِ الكلماتِ الهزيلةِ المُنكرةِ، الَّتي كانَ يتفوَّهُ بهَا المنافقونَ بعدَ نزولِ آياتِ الجهادِ؛ فقدْ كانوا يقولونَ تارةً: (لا تنفرُوا في الحرِّ)[3]، وأُخرى: (وإذْ يقولُ المنافقونَ والَّذينَ في قلوبِهِم مرضٌ ما وعدَنَا اللُّه ورسولُهُ إلَّا غرورًا)[4]، وثالثةً كانوا يقولونَ: (هَلُمَّ إلينا)[5]؛ مِنْ أجلِ إضعافِ المؤمنينَ، وإعاقتِهِم عَنِ التَّوجُّهِ إلى ميدانِ الجهادِ.

ولم يكونوا يكتفونَ بعدمِ ترغيبِ النَّاسِ في أمرِ الجهادِ؛ بلْ كانوا يبذلونَ قُصارى جهودِهِم مِنْ أجلِ صدِّهِم عَنِ الجهادِ، أو تثبيطِ معنوياتِهِم، وعزائمِهِم على الأقلِّ.

ثُمَّ تُضيفُ الآيةُ: (فإذا عزمَ الأمرُ فلو صدقُوا اللَّه لكانَ خيرًا لهم)، وسيرفعُ رؤوسَهُم في الدُّنيا، ويمنحُهُم العزَّةَ، والفخرَ، ويؤدِّي إلى أنْ ينالوا الثَّوابَ الجزيلَ، والأجرَ الكبيرَ، والفوزَ العظيمَ في الآخرةِ.

وجملةُ (عزمَ الأمرُ) تشيرُ في الأساسِ إلى استحكامِ العملِ، إلَّا أنَّ المُرادَ مِنْها هُنا الجهادُ، بقرينةِ الآياتِ الَّتي سبقتْهَا والَّتي تليْهَا.

وتُضيفُ الآيةُ التَّاليةُ: (فهلْ عسيتُم إنْ توليتُم أنْ تُفسدُوا في الأرضِ وتقطِّعُوا

2. (طاعة) مبتدأ، وخبره محذوف، والتَّقدير: طاعة وقول معروف أمثل لهم، واعتبرها البعض خبرًا لمبتدأ محذوف، وكان التَّقدير: أمرنا طاعة، إلَّا أنَّ المعنى الأوَّل هو الأنسب.
3. التَّوبة، الآية 18.
4. الأحزاب، الآية 12.
5. الأحزاب، الآية 18.

أرحامَكُـم)[6]؛ لأنَّكـم إنْ أعرضتُم عَنِ القرآنِ، والتَّوحيـدِ؛ فإنَّكم سترجعونَ إلى جاهليَّتِكُـم حتمًا، ولم يكـنْ في الجاهليَّةِ إلَّا الفسادُ في الأرضِ، والإغارةُ، والقتلُ، وسفكُ الدِّماءِ، وقطيعةُ الرَّحمِ، ووأدُ البناتِ.

هذا إذا كانتْ «تولَّيتُم» مِنْ مادَّةِ «تولَّي» بمعنى الإعراضِ.

غيرَ أنَّ كثيرًا مِنَ المُفسِّرينَ احتملَ أنْ تكونَ مِنْ مادَّةِ «ولاية»، أيْ: الحكومةُ، فيكونُ المعنـى: إنَّكـم إذا تولَّيتُم زمـامَ السُّلطةِ؛ فلا يُتَوَقَّـعُ مِنْكُم إلَّا الضَّـلالُ، والفسادُ، وسفـكُ الدِّماءِ، وقطيعةُ الرَّحمِ. وكأنَّ جمعًا مِنَ المنافقـينَ قدِ اعتذرَ؛ مِنْ أجلِ أنْ يفـرَّ مِنْ ميدانِ الجهـادِ، بأنَّا كيفَ نطأُ ساحـةَ الحربِ، ونقتـلُ أرحامَنَا، ونسفكُ دماءَهُم، وعِنْدَهَا سنكونُ مِنَ المفسدينَ في الأرضِ؟

فيُجيبُهُـمُ القرآنُ قائـلاً: ألم تقتلوا أرحامَكُم وتسفكُـوا دماءَهُم، ولم يظهرْ مِنْكُم إلَّا الفسادُ في الأرضِ، يومَ كانتِ الحكومةُ بأيديكُم؟ إنْ هذا إلَّا تَذرُّعٌ، وتَهرُّبٌ؛ فإنَّ الهدفَ مِنَ الحربِ في الإسلامِ هوَ إخمادُ نارِ الفتنةِ، لا الفسادُ في الأرضِ، والهدفُ اقتلاعُ جذورِ الظُّلمِ، وإزالتُهُ مِنَ الوجودِ، لا قطعُ الرَّحمِ.

وقدْ وردَ في بعضِ الرِّواياتِ الواردةِ عَنْ أهلِ البيتِ(ع) أنَّ هذهِ الآيةَ في بني أُميَّةَ، الَّذيـنَ لم يرحمُوا صغيرًا، ولا كبيرًا، بلْ سفكُـوا دماءَ الجميعِ، حتَّى أقاربِهِم، لمَّا تسلَّمُوا زمامَ الحُكْمِ[7].

6. بالرَّغـم مِـنْ أنَّ القليل مِنَ المُفسِّرينَ قد بحـث في تركيب هذهِ الآية، لكن يبدو أنَّ(إن تولَّيتـم) جملة شرطية وقعت بينَ اسم «عسـى» وخبرها، وجـزاء إن الشرطيَّة مجموع جملة(فهل عسيتم أن تفسدوا في الأرض)، والتَّقديـر: إن تولَّيتم عَنْ كتاب الله فهل يترقَّب منكم إلّا الفساد في الأرض؟.

7. راجع: نور الثَّقلين، المجلَّد 5، صفحة 40.

مِنَ المعلومِ أنَّ بني أُميَّةَ جميعًا، ابتداءً مِنْ أبي سفيانَ، إلى أبنائِه، وأحفادِه، كانوا مِصداقًا واضحًا لهذهِ الآيةِ، وهذا هوَ المُرادُ مِنَ الرِّوايةِ؛ إذْ أنَّ للآيةِ معنًى واسعًا، يشملُ كُلَّ المنافقينَ الظالمينَ، والمفسدينَ.

وتُوضِّحُ الآيةُ التَّاليةُ المصيرَ النِّهائيَّ لهؤلاءِ القومِ المنافقينَ، المُفسدينَ، المُتذرِّعينَ بأوهى الحُججِ؛ فتقولُ: (أولئكَ الَّذينَ لعنَهُمُ اللهُ فأصمَّهُم وأعمى أبصارَهُم).

إنَّ هـؤلاءِ يظنُّونَ أنَّ الجهادَ الإسلاميَّ القائمَ على أساسِ الحقِّ، والعدالةِ، قطيعةً للرَّحـم، وفسادًا في الأرضِ، أمَّـا كُلُّ الجرائمِ الَّتي ارتكبوها في الجاهليَّةِ، والدِّماءُ البريئـةُ الَّتي سفكُوها أيَّامَ تسلُّطِهم، والأطفـالُ الأبرياءُ الَّذينَ وأدوهُم، ودفنُوهُم وهُمْ أحياءٌ يستغيثونَ؛ كانتْ قائمةً على أساسِ الحقِّ، والعدلِ! لعنَهُمُ اللهُ إذْ لا أذنَ واعيةٌ لَهُم، ولا عينَ ناظرةٌ بصيرةٌ!

ونقرأُ في روايةٍ عَنِ الإمامِ عليِّ بنِ الحسينِ، أنَّهُ قالَ لولدِهِ الإمامِ الباقرِ(ع): «إيَّاكَ ومصاحبَـةَ القاطـعِ لرحمِه؛ فإنِّي وجدتُـهُ ملعونًا في كتابِ اللهِ عـزَّ وجلَّ في ثلاثةِ مواضعَ، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: فهلْ عسيتُم...»[8].

«الرَّحـمُ» في الأصلِ محلُّ استقرارِ الجنينِ في بطنِ أُمِّه، ثُمَّ أُطلقَ هذا التَّعبيرُ على كُلِّ الأقرباءِ؛ لأنَّهم نشأُوا، وَوُلِدُوا مِنْ رحمٍ واحدةٍ.

وجـاءَ في حديثٍ آخـرَ عَنْ رسولِ اللهِ(ص): «ثلاثةٌ لا يدخلونَ الجنَّةَ: مدمنُ خمرٍ، ومدمنُ سحرٍ، وقاطعُ رحمٍ»[9].

8. أصول الكافي، المجلَّد 2، باب «مَنْ تكره مجالسته»، الحديث 7. أمّا الآيتان اللَّتان وردتا في بقية الحديث فإحداهما الآية (25) مِنْ سورة الرَّعد، والأُخرى الآية (27) مِنْ سورة البقرة، وقد ورد اللَّعن في إحداهما صريحًا، وفي الأُخرى كناية وتلميحًا
9. التَّفسيرُ الأمثل ذيل الآية (77) مِنْ سورة المائدة (نقلاً عَنِ الخصال).

ولا يخفى أنَّ لعنَ اللهِ تعالى لهؤلاءِ القومِ، وطردَهُم مِنْ رحمتِهِ، وكذلكَ سلبَهُم القدرةَ على إدراكِ الحقائقِ، لا يستلزمُ الجبرَ، لأنَّ ذلكَ جزاءُ أعمالِهِم، وردُّ فعلٍ لسلوكِهِم، وأفعالِهِم. وتناولتْ آخرُ آيةٍ مِنْ هذهِ الآياتِ ذكرَ العلَّةِ الحقيقيَّةِ لانحرافِ هؤلاءِ القومِ التُّعساءِ، فقالتْ: (أَفَلَا يتدبّرُونَ القرآنَ أَمْ على قلوبٍ أقفالُهَا)؟

نعمْ، إنَّ عاملَ مسكنةِ هؤلاءِ، وضياعِهِم أحدُ اثنينِ: إمَّا أنَّهم لا يتدبَّرُونَ في القرآنِ برنامجَ الهدايةِ الإلهيَّةِ، والوصفةَ الطبيَّةَ الشافيةَ تمامًا، أو أنَّهم يتدبَّرُونَهُ، إلَّا أنَّ قلوبَهُم مقفلةٌ نتيجةَ اتِّباعِ الهوى، والأعمالِ الَّتي قامُوا بها مِنْ قبلُ، وهيَ مقفلةٌ بشكلٍ لا تنفذُ معَهُ أيُّ حقيقةٍ إلى قلوبِهِم. وبتعبيرٍ آخرَ، فإنَّهم كرجلٍ ضلَّ طريقَهُ في الظُّلماتِ؛ فَلَا سراجَ في يدِهِ، ولا هوَ يبصرُ؛ إذْ هوَ أعمى؛ فلو كانَ معَهُ سراجٌ، وكانَ مُبصرًا؛ فإنَّ الاهتداءَ إلى الطَّريقِ في أيِّ مكانٍ سهلٌ، ويسيرٌ.

«الأقفالُ» جمعُ قفلٍ، وهيَ في الأصلِ مِنْ مادَّةِ القفولِ أي الرُّجوعِ، أو مِنَ القفيلِ، أي الأشياءِ اليابسةِ، ولمَّا كانَ المُتعارفُ أنَّهم إذا أغلقُوا البابَ، وقفلُوهَا بقفلٍ، فكُلُّ مَنْ يأتِ يقفلُ راجعًا، وكذلكَ لمَّا كانَ القفلُ شيئًا صلبًا، لا ينفذُ فيهِ شيءٌ؛ لذَا فقدْ أُطلقتْ هذهِ الكلمةُ على هذهِ الآلةِ الخاصَّةِ.

بحـــــــــث:

القرآنُ كتابُ فكرٍ، وعملٍ:

تُؤكِّدُ آياتُ القرآنِ المختلفةُ على حقيقةِ أنَّ هذا الكتابَ السَّماويَّ العظيمَ ليسَ للتِّلاوةِ وحسبُ؛ بلْ إنَّ الهدفَ النهائيَ مِنْهُ هوَ الذِّكرُ، والتَّدبُّرُ في عواقبِ الأُمورِ،

والإنذارُ، وإخراجُ البشرِ مِنَ الظُّلماتِ، والشِّفاءُ، والرَّحمةُ، والهدايةُ.

فنقرأُ في الآيةِ (50) مِنْ سورةِ الأنبياءِ: (وهذا ذكرٌ مباركٌ أنزلْنَاهُ).

وفي الآيةِ (29) مِنْ سورةِ ص: (كتابٌ أنزلناهُ إليكُ مباركٌ ليدَّبَّرُوا آياتِهِ).

وجاءَ في الآيةِ (19) مِنْ سورةِ الأنعام: (وأوحيَ إليَّ هذا القرآنُ لأنذركم بهِ ومَنْ بلغ).

وتقولُ الآيةُ الأولى مِنْ سورةِ إبراهيمَ: (كتابٌ أنزلناهُ إليكَ لتخرجَ الناسَ مِنَ الظُّلماتِ إلى النُّور).

وأخيرًا، جاءَ في الآيةِ (82) مِنْ سورةِ الإسراءِ: (وننزِّلُ مِنَ القرآنِ ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين).

ولهذا، فإنَّ القرآنَ الكريمَ يجبُ أنْ يأخذَ مكانَهُ مِنْ حياةِ المسلمينَ، ويكونُ في صميمِها لا على هامشِها، وعليهم أنْ يجعلُوهُ قدوتَهم وأسوتَهم، وأنْ ينفِّذُوا كُلَّ أوامرِهِ، وأنْ يجعلُوا خطوطَ حياتِهم وطبيعتَها منسجمةً معهُ.

لكنَّ جماعةً مِنَ المسلمينَ -معَ الأسفِ الشَّديدِ- لا يتعاملونَ معَ القرآنِ إلَّا على أنَّهُ مجموعةُ أوراد، وأذكارٍ؛ فهُم يتلونَهُ جميعًا تلاوةً مُجرَّدةً، ويهتمُّونَ أشدَّ الاهتمامِ بالتَّجويدِ، ومخارجِ الحروفِ، وحُسنِ الصَّوتِ، وأكثرُ شقاءِ المسلمينَ، وتعاستِهم يكمنُ في أنَّهم أخرجُوا القرآنَ عَنْ كونِهِ دستورًا جامعًا لحياةِ البشرِ، واكتفَوا بترديدِ ألفاظِهِ، وقنعُوا بذلكَ.

والجديرُ بالانتباهِ أنَّ الآياتِ موردَ البحثِ تقولُ بصراحةٍ: إنَّ هؤلاءِ المنافقينَ المرضى القلوبِ لم يتدبَّرُوا في القرآنِ، فلاقَوا هذا المصيرَ الأسودَ.

«التَّدبُّرُ» مِنْ مادَّة دَبْر، وهو تحقيقُ، وبحثُ نتائجِ الشَّيءِ، وعواقِبِه، بعكسِ «التَّفكُّرِ» الَّذي يُقالُ غالبًا عَنْ علل الشَّيءِ وأسبابِه، واستُعْمِلَ كلا التَّعبيرين في القرآن.

لكنْ ينبغي أنْ لا ننسى أنَّ الاستفادةَ مِنَ القرآنِ تحتاجُ إلى نوعٍ مِنْ تهذيبِ النَّفسِ، وجهادِها، وإنْ كانَ القرآنُ بنفسِه مُعينًا في تهذيبِها؛ لأنَّ القلوبَ إذا كانت مُقفلةً بأقفالِ الهوى والشَّهوةِ، والكِبَرِ، والغرورِ، واللَّجاجةِ، والتَّعصُّبِ؛ فسوفَ لا يلِجُهَا نورُ الحقِّ. وقد أشارتِ الآياتُ -موردُ البحثِ- إلى هذا المعنى.

وما أروعَ كلامَ أميرِ المؤمنينَ عليٍّ(ع) في خطبتِه حولَ صفاتِ المُتَّقينَ، إذ يقولُ: «أمَّا اللَّيلُ فصافُّونَ أقدامَهم، تالينَ لأجزاءِ القرآنِ، يرتِّلونَها ترتيلاً، يحزنونَ بِه أنفسَهُم، ويستثيرونَ بِه دواءَ دائِهم، فإذا مرُّوا بآيةٍ فيها تشويقٌ؛ ركنُوا إليها طمعًا، وتطلَّعتْ نفوسُهم إليها شوقًا، وظنُّوا أنَّها نصبُ أعينِهم، وإذا مرُّوا بآيةٍ فيها تخويفٌ؛ أصغَوا إليها مسامعَ قلوبِهم، وظنُّوا أنَّ زفيرَ جهنَّمَ وشهيقَها في أصولِ آذانِهم»[10].

حديثٌ عَنِ الإمامِ الصَّادقِ(ع):

وردَ عَنِ الإمامِ الصَّادقِ(ع) في تفسيرِ جملةِ: (أمْ على قلوبٍ أقفالُها): «إنَّ لكَ قلبًا ومسامعَ، وإنَّ اللّه إذا أرادَ أنْ يهدي عبدًا؛ فتحَ مسامعَ قلبِه، وإذا أرادَ بِه غيرَ ذلكَ؛ ختمَ مسامعَ قلبِه؛ فلا يصلحُ أبدًا، وهو قولُ اللّهِ عزَّ وجلَّ: (أمْ على قلوبٍ أقفالُها)»[11].

10. نهج البلاغة، الخطبة 193، المعروفة بخطبة همام.
11. نور الثقلين، المجلَّد 5، صفحة 41.

الآيـــــــــــــات 25 - 28

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (25) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الأَمْرِ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُـمْ (26) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُواْ مَا أَسْخَطَ اللّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (28)﴾

التَّفسيرُ:

أفلا يتدبَّرُونَ القرآنَ:

تواصـلُ هذهِ الآياتُ الكلامَ حولَ المنافقـينَ، ومواقفِهم المختلفة؛ فتقولُ: (إنَّ الَّذينَ ارتدُّوا على أدبارِهم مِنْ بعدِ ما تَبَيَّنَ لهمُ الهدى الشَّيطانُ سوَّلَ لهمْ وأملى لهمْ).

وبالرَّغـمِ مِنْ أنَّ البعضَ احتملَ أنَّ هذهِ الآيةَ تتحدَّثُ عَنْ جماعةٍ مِنَ الَّذينَ كفرُوا مِـنْ أهـلِ الكتابِ الَّذيـنَ كانُوا يذكرونَ علامـاتِ النَّبيِّ(ص) قبلَ ظهـورِهِ، وذلكَ استنـادًا إلى مـا وردَ في كتبِهـم السَّماويَّةِ، وكانُوا ينتظرونَهُ علـى أحرَّ مِنَ الجمرِ، إلَّا أنَّهـم أعرضُـوا عنهُ بعدَ ظهـورِهِ، واتِّضاحِ هذهِ العلامـاتِ، وتحقُّقِها، ومنعتْهُم شهواتُهـم، ومصالحُهُم مِنَ الإيمانِ بهِ. بالرَّغمِ مِنْ ذلـكَ؛ فإنَّ القرائنَ الموجودةَ في الآيـاتِ السَّابقـةِ، واللَّاحقةِ تُبيِّنُ جيِّدًا أنَّ هذهِ الآيةَ تتحدَّثُ أيضًا عَنِ المنافقينَ الَّذيـنَ جاؤُوا ورأَوا بـأمِّ أعينِهم الدَّلائلَ الدَّالَّةَ على حقَّانيَّـةِ النَّبيِّ(ص)، وسمعُوا آياتِهِ، إلَّا أنَّهم أدبرُوا اتِّباعًا لأهوائِهم، وشهواتِهم، وطاعةً لوساوسِ الشَّيطانِ.

«سوَّل» مِنْ مادَّةِ سُؤْل -على وزن قُفْل-، وهي الحاجةُ الَّتي يحرصُ عليها الإنسانُ[1]، و«التَّسويلُ» بمعنى التَّرغيب، والتَّشويق إلى الأُمورِ الَّتي يحرصُ عليها، ونسبتُهُ إلى الشَّيطانِ بسببِ الوساوسِ الَّتي يُلقيها في نفسِ الإنسانِ، وتمنعُ مِنْ هدايتِه.

وجملةُ (وأملى لهم) مِنْ مادَّةِ «إملاء»، وهو زرعُ طولِ الأملِ فيهم، والآمالِ البعيدةِ المدى، والَّتي تشغلُ الإنسانَ؛ فتصدُّهُ عَنِ الحقِّ والهُدى. وتشرحُ الآيةُ التَّاليةُ علَّةَ هذا التَّسويلِ، والتَّزيينِ الشَّيطانيِّ؛ فتقولُ: (ذلكَ بأنَّهم قالُوا للَّذينَ كرهُوا ما نزَّلَ اللهُ سنُطيعكُم في بعضِ الأمرِ)، وهذا دأبُ المنافقينَ في البحثِ عَنِ العصاةِ، والمخالفينَ، وإذا لم يكونُوا مشتركينَ، ومتَّفقينَ معهُم في كُلِّ المواقفِ؛ فإنَّهم يتعاونونَ معهُم على أساسِ المقدارِ المُتَّفقِ عليهِ مِنْ مواقفِهم، بلْ ويطيعونَهم إذا اقتضى الأمرُ.

بلْ قد اتَّجهَ منافقُو المدينةِ نحوَ يهودِ المدينةِ -وهُم «بنو النَّضيرِ» و«بنو قُريظةَ»- الَّذينَ كانُوا يُبشِّرُونَ بالإسلامِ قبل بعثةِ النَّبيِّ(ص)، أمَّا بعدَ ظهورِهِ، ومبعثِهِ، وتَعرُّضِ مصالحِهم للخطرِ، ولحسدِهم، وكبرِهم؛ فإنَّهم اعتبروا الإسلامَ ديناً باطلاً، وغيرَ سليمٍ ولمَّا كانَ هناكَ قدرٌ مشتركٌ بينَ المنافقينَ، واليهودِ في مخالفتِهم النَّبيَّ(ص)، وتآمرِهم ضدَّ الإسلامِ؛ فإنَّهم اتَّفقوا معَ اليهودِ على العملِ المشتركِ ضدَّ الإسلامِ، والمسلمينَ.

وربَّما كانَ تعبيرُ (في بعضِ الأمرِ) إشارةً إلى أنَّنا نتعاونُ معكم في هذا الجزءِ فقطْ؛ فإنَّكم تخالفونَ عبادةَ الأصنامِ، وتعتقدونَ بالبعثِ، والقيامةِ، ونحنُ لا نتَّفقُ معكم في هذهِ الأُمورِ[2].

1. ولذلك فإنَّ البعض قد فسّرها بمعنى الأمل، كما نقرأ ذلك في الآية(36) مِنْ سورة طه: (قد أوتيتَ سُؤلكَ يا موسى).
2. ثمّة احتمالات عديدة أُخرى في تفسير هذهِ الآية، لا ينسجم أي مِنْهَا مع الآيات السَّابقة واللاحقة، ولذلك أعرضنا عَنْ ذكرها.

هـذا الكلامُ شبيهٌ بمـا جاءَ في الآيةِ (11) مِـنْ سورةِ الحشرِ: (ألم تـرَ إلى الَّذينَ نافقُوا يقولونَ لإخوانِهم الَّذينَ كفرُوا مِنْ أهلِ الكتابِ لَئِنْ أُخرجتُم لنخرجنَّ معكم ولا نطيعُ فيكم أحدًا أبدًا وإنْ قوتلتُم لننصرنَّكم).

وتهـدِّدُ الآياتُ هؤلاءِ في نهايتِها فتقولُ: (واللّهُ يعلـمُ إسرارَهم) فهوَ عليمٌ بكفرِهم الباطنِ، ونفاقِهم، وبتآمرِهم معَ اليهودِ، وسيعاقبُهم، ويجازيهم في الوقتِ المناسبِ.

وعليمٌ بما كانَ يخفيهِ اليهودُ مِنْ حسدِهم، وعدائِهم وعنادِهم، فقد كانُوا يعرفونَ علاماتِ نبيِّ الإسلامِ (ص) كما يعرفونَ أبناءَهُم، بشهادةِ كتابِهم، وكانوا يذكرونَ هذهِ العلاماتِ للنَّاسِ مِنْ قبلُ، إلَّا أنَّهم أخفَوها جميعًا بعدَ ظهورِهِ، واللّهُ عليمٌ بهذا الإخفاءِ، ومحاولةِ طمسِ الحقِّ.

وجـاءَ في حديـثٍ عَـنِ الإمامـينِ، الباقـرِ، والصَّادقِ (عليهمـا السَّـلامُ): أنَّ المرادَ مِنْ (كرهـوا مـا أنـزلَ اللّهُ) بنـو أُميَّةَ الَّذيـنَ كرهُوا نـزولَ أمرِ اللّهِ تعـالى في ولايةِ عليٍّ (ع)[3]. وواضحٌ أنَّ هذا النَّوعَ تطبيقٌ، وبيانُ مصداقٍ، وليسَ حصرًا لمعنى الآيةِ.

والآيـةُ التَّاليـةُ بمثابـةِ توضيحٍ لهـذا التَّهديدِ المُبهـمِ؛ فتقولُ: (فكيـفَ إذا توفَّتْهُمُ الملائكةُ يضربونَ وجوهَهُم وأدبارَهُم)[4].

نعـمْ، إنَّ هؤلاءِ الملائكةَ مأمورونَ أنْ يُذيقوا هؤلاءِ العذابَ، وهم على أعتابِ الموتِ؛ ليذوقُوا وبالَ الكفرِ، والنِّفـاقِ، والعنادِ، وهم يضربونَ وجوهَهَم؛ لأنَّها اتَّجهتْ نحوَ أعداءِ اللّهِ، ويضربونَ أدبارَهُم؛ لأنَّهم أدبرُوا عَنْ آياتِ اللّهِ، ونبيِّهِ.

3. مجمع البيان، المجلَّد 9، صفحة 105.
4. كيف، خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: فكيف حالهم...

وهـذا المعنـى نظـيرُ مـا وردَ في الآيـة (50) مِـنْ سـورةِ الأنفـالِ حـولَ الكُفَّـارِ، والمنافقينَ: (ولو ترى إذ يتوفَّى الَّذيـنَ كفروا الملائكةُ يضربونَ وجوهَهُم وأدبارَهُم وذوقُـوا عذابَ الحريقِ). وتتنـاولُ آخرُ آيةٍ مِنْ هذهِ الآياتِ بيـانَ علَّةِ هذا العذابِ الإلهـيِّ، وهُم على أعتابِ الموتِ؛ فتقولُ: (ذلك بأنَّهم اتبعُوا ما أسخطَ اللّه وكرهُوا رضوانَهُ فأحبطَ أعمالَهُم).

لأنَّ رضى اللّهِ سُبحانَهُ هو شرطُ قبولِ الأعمالِ، وكُلِّ سعيٍ، وجهدٍ؛ وبناءً على هذا، فَمِـنَ الطبيعيِّ أنْ تحبطَ أعمـالُ أُولئكَ الَّذينَ يصرُّونَ على إغضابِ اللّهِ عزَّ وجلَّ، وإسخاطِـهِ، ويخالفونِ ما يرتضيـهِ، ويودِّعُونَ هذهِ الدُّنيا وهـم خالو الوفاضِ، قد أثقلتْهُم أوزارُهم، وأرهقتْهُم ذنوبُهم.

إنَّ حـالَ هؤلاءِ القومِ يخالفُ تمامًا حالَ المؤمنـينَ الَّذينَ تستقبلُهم الملائكةُ بوجوهٍ ضاحكةٍ، عِنْدَمَا يشرفونَ على الموتِ، وتبشِّرُهم بما أعدَّ اللّهُ لهم: (الَّذينَ تتوفَّاهم الملائكةُ طيِّبينَ يقولونَ سلامٌ عليكم ادخلُوا الجنَّةَ بما كنتم تعملونَ)[5].

وممَّـا يلفتُ النَّظـرَ أنَّ الجملةَ فعليَّـةٌ في موردِ غضبِ اللّهِ تعالى: (مـا أسخطَ اللّهَ) وهـي اسميَّةٌ في موردِ رضاه: (رضوانَهُ)، وقالَ بعضُ المُفسِّرينَ: إنَّ هذا التَّفاوتَ في التَّعبيرِ يتضمَّنُ نكتةً لطيفةً، وهي أنَّ غضبَ اللّهِ قد يحدثُ، وقد لا يحدثُ، أمَّا رضاهُ ورحمتُـهُ؛ فهي مستمرَّةٌ، دائمةٌ. وواضحٌ أيضًا أنَّ غضبَ اللّهِ تعالى، وسخطَهُ لا يعني التَّأثُّرَ النَّفسيَّ، كما أنَّ رضاهُ سُبحانَهُ لا يعني انبساطَ الرُّوحِ، وانشراحَ الأساريرِ، بل هما كما وردَ في حديثِ الإمامِ الصَّادقِ(ع): «غضبُ اللّهِ عقابُهُ، ورضاهُ ثوابُهُ»[6].

5. النحل، الآية 32.
6. توحيد الصدوق، طبق نقل الميزان، المجلَّد 18، صفحة 266.

الآيـــــــــــــات 29 - 31

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ أَن لَن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (29) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ (31)﴾

التَّفسيرُ:

يُعرفُ المنافقونَ مِنْ لحنِ قولِهم:

تشيرُ هذهِ الآياتُ إلى جانبٍ آخرَ في صفاتِ المنافقينَ، وعلاماتِهم، وتؤكِّدُ بالخصوصِ على أنَّهم يظنُّونَ أنَّ باستطاعتِهم أنْ يُخفوا واقعَهم وصورتَهم الحقيقيَّةَ عَنِ النَّبيِّ(ص) والمؤمنينَ دائمًا، وأنْ يُنقذُوا أنفسَهُم بذلكَ مِنَ الفضيحةِ الكُبرى؛ فتقولُ أوَّلاً: (أمْ حسبَ الَّذينَ في قلوبِهم مرضٌ أنْ لن يُخرجَ اللهُ أضغانَهُم)[1].

«الأضغانُ» جمع ضِغْنٍ، وهو الحقدُ الشَّديدُ.

نعمْ، لقد كانتْ قلوبُ هؤلاءِ مملوءةً غيظًا، وحقدًا شديدًا على النَّبيِّ(ص)، والمؤمنينَ، وكانوا يتحيَّنُونَ الفرصَ لإنزالِ الضَّربةِ بِهم؛ فهُنا يحذِّرُهم القرآنُ بأنْ لا يظنُّوا أنَّ بإمكانِهم أنْ يُخفوا وجهَهُم الحقيقيَّ دائمًا؛ ولذلكَ فإنَّ الآيةَ التَّاليةَ تضيفُ: (ولو نشاءُ لأريناكَهُم فلعرفتَهُم بسيماهُم) فنجعلُ في وجوهِهم علاماتٍ تعرفُهم بها إذا رأيتَهم، وتراهُم رأيَ العينِ؛ فتنظرُ واقعَهم عِنْدَمَا تنظرُ ظاهرَهُم.

1. اعتبر البعض(أم) في الآية أعلاه استفهاميَّة، والبعض الآخر اعتبرها منقطعة بمعنى بل، ويبدو أنَّ الأوّل هو الأفضل.

ثُـمَّ تضيفُ: (ولتعرفنَّهُـم في لحـنِ القولِ)؛ فيمكنُـكَ في الحـالِ أنْ تعرفَهُم مِنْ خلالِ نمطِ كلامِهم.

يقـولُ الرَّاغبُ في مفرداتِه: «اللَّحنُ» عبارةٌ عَـنْ صرفِ الكلامِ عَنْ قواعدِهِ وسُننِه، أو إعرابِـه على خلافِ حالِه، أو الكنايةِ بالقولِ بدلاً مِنَ الصَّراحةِ. والمرادُ في الآيةِ مـوردِ البحثِ هو المعنـى الثَّالثُ، أيْ: يمكنُ معرفةُ المنافقـينَ، مرضى القلوبِ، مِنْ خلالِ الكنايةِ في كلامِهم، وتعبيراتِهم المؤذيةِ، الَّتي تنطوي على النِّفاقِ.

حينما يكونُ الكلامُ عَنِ الجهادِ؛ فإنَّهم يسعَونَ إلى إضعافِ إرادةِ النَّاسِ، ومعنوياتِهم، وحينمـا يكونُ الـكلامُ عَنِ الحقِّ، والعدالةِ؛ فإنَّهم يُحرِّفونَـهُ بنحوٍ مِنَ الأنحاءِ، وإذا مـا أتى الحديثُ عَنِ الصَّالحـينَ، المُتَّقينَ، السَّابقينَ إلى الإسلامِ؛ فإنَّهم يسعَونَ إلى تشويهِ سمعتِهم، وتقليلِ أهميتِهـم، ومكانتِهم؛ ولذلكَ رُوِيَ عَنْ «أبي سعيدٍ الخدريِّ» حديثُـهُ المعروفُ الَّذي يقولُ فيهِ: لحنُ القولِ بغضُهم عليِّ بنَ أبي طالبٍ، وكنَّا نعرفُ المنافقينَ على عهدِ رسولِ اللّهِ ببغضِهم عليِّ بنَ أبي طالبٍ[2].

نعمْ، لقد كانتْ إحدى العلاماتِ البارزةِ للمنافقينَ أنَّهَم كانوا يُعادونَ أوَّلَ مَنْ آمنَ مِنَ الرِّجالِ، وأوَّلَ مُضحٍّ في سبيلِ الإسلامِ، ويبغضونَهُ.

إنَّ الإنسانَ لا يستطيعُ عادةً أنْ يكتمَ ما ينطوي عليهِ ضميرُهُ لمدَّةٍ طويلةٍ، دونَ أنْ يَظهرَ ذلكَ في كنايـاتِ كلامِه، وإشاراتِه، ولحنِه؛ ولذلكَ نقرأُ في حديثٍ عَنْ أميرِ المؤمنينَ

2. مجمـع البيـان، ذيل الآيات مورد البحث. ثُـمَّ إنَّ جماعة مِنْ كبار العامَّة نقلوا مضمون هذا الحديث في كتبهم، ومِنْ جملتهم: أحمـد بـن حنبل في كتاب الفضائل، وابن عبد البـر في الاستيعاب، والذهبيّ في تاريخ أوّل الإسـلام، وابن الأثير في جامع الأُصول، والعلاّمـة الگنجـي في كفاية الطالب، ومحـبّ الدّين الطـبريّ في الرياض النّضرة، والسيوطـيّ في الدُّرِّ المنثـور، والآلوسيّ في روح المعـاني، وأورده جماعـة آخرون في كتبهم، وهو يُبيِّنُ أنَّها إحدى الرِّوايات المسلّمة عَنِ الرّسول الأعظم (صلَّى الله عليه وآله وسلّم). لمزيد مِنَ الإيضاح يراجع إحقاق الحقِّ، المجلَّد الثّالث، صفحة 110 وما بعدها.

عليٌّ(ع): «ما أضمرَ أحدٌ شيئًا إلَّا ظهرَ في فلتاتِ لسانِه، وصفحاتِ وجهِه»[3].

وقد ذكرتْ آياتُ القرآنِ الأُخرى كلماتِ المنافقينَ الجارحةَ، والَّتي هيَ مصداقٌ للحنِ القولِ هذا، أو حركاتِهم المشبوهةَ، ولعلَّهُ لهذا السَّببِ قالَ بعضُ المُفسِّرينَ: إنَّ النَّبيَّ(ص) كانَ يعرفُ المنافقينَ جيِّدًا، مِنْ خلالِ علاماتِهم، بعدَ نزولِ هذهِ الآيةِ.

والشَّاهدُ على هذا الكلامِ هوَ أنَّ النَّبيَّ(ص) أُمرَ بأنْ لا يُصلِّي على مَنْ ماتَ مِنْهُم، ولا يقومُ على قبرِهِ داعيًا اللّٰهَ لَهُ: (ولا تُصلِّ على أحدٍ مِنْهُم ماتَ أبدًا ولا تقمْ على قبرِهِ)[4].

لقد كانَ الجهادُ بالذَّاتِ مِنَ المواقفِ الَّتي كانَ المنافقونَ يعكسونَ فيها ما يعيشونَهُ في داخلِهم، وقد أشارتْ آياتٌ كثيرةٌ في القرآنِ الكريمِ، وخاصّةً في سورةِ التَّوبةِ، والأحزابِ إلى وضعِ هؤلاءِ قبلَ الحربِ، وقتَ جمعِ المساعداتِ، وإعدادِ العدَّةِ للحربِ، وفي أثناءِ الحربِ في ساحتِها إذا اشتدَّ هجومُ العدوِّ، واستعرتْ حملتُهُ، وبعدَ الحربِ عِنْدَ تقسيمِ الغنائمِ حتَّى وصلَ الأمرُ بالمنافقينَ إلى أنْ يعرفَهُم حتَّى المسلمونَ العاديُّونَ في هذهِ المشاهدِ، والمواقفِ.

واليومَ أيضًا لا تصعبُ معرفةُ المنافقينَ مِنْ لحنِ قولِهم، ومواقفِهم المُضادَّةِ في المسائلِ الاجتماعيَّةِ المُهمَّةِ، وخاصَّةً عِنْدَ الاضطراباتِ، أو الحروبِ، ويمكنُ التَّعرفُ عليهم بأدنى دقَّةٍ في أقوالِهم، وأفعالِهم، وما أروعَ أنْ يعيَ المسلمونَ أمرَهم، ويستيقظوا، ويستلهموا مِنْ هذهِ الآيةِ تعليماتِها ؛ ليعرفوا هذهِ الفئةَ الحاقدةَ، الخطرةَ، ويفضحُوها.

3. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الجملة 26.
4. التوبة، الآية 84.

وأخـيرًا، تُضيفُ الآيةُ: (واللّهُ يعلـمُ أعمالَكم) فهوَ يعلمُ أعمـالَ المؤمنينَ، ما ظهرَ منْها وما بطنَ، ويعلمُ أعمالَ المنافقينَ، وإذا افترضنَا أنَّ هؤلاءِ قادرونَ على إخفاءِ واقعِهم الحقيقيِّ عَنِ النَّاسِ؛ فهل باستطاعتِهم إخفاءَهُ عَنِ اللّهِ الَّذي هوَ معهُم في سرِّهم، وعلانيتِهم، وخلوتِهم، واجتماعِهم؟

وتضيـفُ الآيـةُ التَّاليـةُ مؤكِّـدةً، ومُوضِّحـةً طرقًـا أُخـرى لتمييـزِ المؤمنـينَ عَنِ المنافقينَ: (ولنبلونَّكُـم حتَّى نعلمَ المجاهدينَ منْكُـم والصَّابرينَ) الحقيقيِّينَ، مِنَ المتظاهريـنَ بالجهـادِ، والصَّبرِ. ومـعَ أنَّ لهذا الابتلاءِ، والاختبـارِ أبعادًا واسعةً، ومجـالاتٍ رحبةً، تشملُ الصَّبرَ، والثَّبـاتَ في أداءِ كُلِّ الواجباتِ، والتَّكاليفِ، إلَّا أنَّ المـرادَ منْهُ هُنا الامتحانُ في ساحةِ الحـربِ، والقتالِ؛ لمناسبتِهِ كلمةَ «المجاهدينَ». والآيـاتِ السَّابقـةَ، واللَّاحقـةَ، والحـقُّ أنَّ ميدانَ الجهـادِ ساحةُ اختبـارٍ عسيرٍ، وشديدٍ، وقلَّما يستطيعُ المرءُ أنْ يُخفي واقعَهُ في أمثالِ هذهِ الميادينِ.

وتقولُ الآيةُ الأخيرةُ: (ونبلوَا أخبارَكُم).

قالَ كثيرٌ منَ المُفسِّرينَ: إنَّ المرادَ منَ الأخبارِ هُنا أعمالُ البشرِ، وذلكَ أنَّ عملاً ما إذا صدرَ منَ الإنسانِ؛ فإنَّهُ سينتشرُ بينَ النَّاسِ كخبرٍ. وقالَ آخرونَ: إنَّ المرادَ منَ الأخبارِ هُنـا: الأسـرارُ الدَّاخليَّةُ؛ لأنَّ أعمالَ النَّاسِ تخبُرُ عَنْ هـذهِ الأسرارِ. ويحتملُ أنْ تكونَ الأخبارُ هنا بمعنى الأخبارِ الَّتي يخبرُ بها النَّاسُ عَنْ وضعِهم، وعهودِهم، ومواثيقِهم، فالمنافقـونَ -مثـلاً- كانوا قد عاهدُوا النَّبيَّ(ص) أنْ لا يرجعُـوا عَنِ القتالِ، في حينِ أنَّهم نقضُوا عهدَهم: (ولقدْ كانوا عاهدُوا اللّهَ منْ قبلُ لا يولُّون الأدبارَ)[5].

5. الأحزاب، الآية 15.

ونراهم في موضعٍ آخرَ: (ويستأذنُ فريقٌ منْهُمُ النَّبيَّ يقولونَ إنَّ بيوتَنا عورةٌ وما هيَ بعورةٍ إنْ يريدونَ إلَّا فرارًا)[6]. وبهذا فإنَّ اللّه سُبحانَهُ يختبرُ أعمالَ البشرِ، كما يختبرُ أقوالَهم، وأخبارَهم.

وطبقًا لهذا التَّفسيرِ فإنَّ لهاتينِ الجملتينِ، في الآيةِ موردِ البحثِ، معنيينِ متفاوتينِ، معَ أنَّ إحداهُما تؤكِّدُ الأُخرى، طِبقًا للتَّفاسيرِ السَّابقةِ.

وعلى أيَّةِ حالٍ، فليستْ هذهِ المرَّةَ الأولى الَّتي يخبرُ اللّه سُبحانَهُ النَّاسَ فيها بأنِّي أبلوكُم لتمييزِ صفوفِكُم، وليعرفَ المؤمنونَ الحقيقيُّونَ، وضعفاءُ الإيمانِ، والمنافقونَ، وقد ذُكرتْ مسألةُ الامتحانِ، والابتلاءِ هذهِ في آياتٍ كثيرةٍ منَ القرآنِ الكريمِ.

وقد بحثْنَا المسائلَ المتعلِّقةَ بالاختبارِ الإلهيِّ في ذيلِ الآيةِ (155) منْ سورةِ البقرةِ، وكذلكَ وردتْ في بدايةِ سورةِ العنكبوتِ.

ثُمَّ إنَّ جملةَ (حتَّى نعلمَ المجاهدينَ) لا تعني أنَّ اللّهَ لا يعلمُهُم، بلِ المرادُ تحقُّقُ هذا المعلومِ عمليًّا، وتشخيصُ هؤلاءِ المجاهدينَ؛ فالمعنى: ليتحقَّقَ علمُ اللّهِ سُبحانَهُ في الخارجِ، وتحصلَ العينيَّةُ، وتتميَّزَ الصُّفوفُ.

6. الأحزاب، الآية 13.

الآيـــــــــــــات 32 - 34

﴿إِنَّ الَّذِيـنَ كَفَـرُواْ وَصَدُّواْ عَـنْ سَبِيلِ اللّهِ وَشَاقُّـواْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَـا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَلَهُمْ (32) يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُواْ أَعمَـالَكُمْ (33) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ (34)﴾

التَّفسيرُ:

الَّذينَ يموتونَ على الكفرِ لنْ يغفرَ اللهُ لهم:

بعـدَ البحـوثِ المختلفةِ الَّتي دارتْ حـولَ المنافقينَ في الآياتِ السَّابقـة؛ تبحثُ هذهِ الآيـاتُ وضعَ جماعةٍ أُخرى مِنَ الكُفَّارِ؛ فتقولُ: (إنَّ الَّذينَ كفروا وصدُّوا عَنْ سبيلِ اللهِ وشاقُّـوا الرَّسـولَ مِنْ بعدِ مـا تَبَيَّنَ لهمُ الهُدى لنْ يضـرُّوا اللهَ شيئًا وسيحبطُ أعمالَهم) حتَّى وإنْ عملُوا خيرًا؛ لأنَّهُ لم يكنْ مقترنًا بالإيمانِ.

هـؤلاءِ يمكنُ أنْ يكونـوا مُشركي مكَّـةَ، أو الكُفَّارَ مِنْ يهودِ المدينـة، أو كليهما؛ لأنَّ التَّعبـيرَ بـ«الكفـرِ»، و«الصَّـدِّ عَـنْ سبيـلِ اللهِ»، و(شاقُّـوا الرَّسولَ) قـد وردَ بحقِّ الفريقينِ في آياتِ القرآنِ الكريمِ.

أمّا «تَبَيَّنَ الهُدى»، فقد كانَ عَنْ طريقِ المعجزاتِ بالنِّسبةِ إلى مشركي مكَّةَ، وعَنْ طريقِ الكتـبِ السَّماويَّةِ بالنِّسبـةِ إلى أهلِ الكتـابِ. و«إحباطُ أعمالِهم» إمَّـا أنْ يكونَ إشارةً إلى أعمـالِ الخـيرِ الَّتي قدْ يقومونَ بها أحيانًا كإقـراءِ الضَّيفِ، والإنفاقِ، ومعونةِ ابنِ السَّبيلِ، أو أنْ يكونَ إشارةً إلى عدمِ تأثيرِ خططِ هؤلاءِ، ومؤامراتِهم ضدَّ الإسلامِ.

وعلـى أيَّةِ حالٍ؛ فقدْ كانَ هؤلاءِ الجماعةُ متَّصفينَ بثـلاثِ صفاتٍ: الكفرُ، والصَّدُّ عَـنْ سبيـلِ اللّهِ، والعـداءِ للنَّبيِّ(صـ)؛ إذ كانـتْ إحداهـا تتعلَّقُ بـاللّهِ سُبحانَهُ، والأُخرى بعبادِ اللّهِ، والثَّالثةُ برسولِ اللّهِ(ص).

وبعـدَ أنْ تُبيّنَ حالَ المنافقينَ، والخطـوطَ العامَّةَ لأوضاعِهم، وجَّهـتِ الآيةُ التَّاليةُ الخطابَ إلى المؤمنينَ، مُبيِّنةً خطَّهم، وحالَهم؛ فقالتْ: (يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا أطيعوا اللّهَ وأطيعُوا الرَّسولَ ولا تُبطلوا أعمالَكم).

في الواقـعِ، إنَّ أسلـوبَ حياةِ المؤمنينَ، وبرنامجِهم يقعُ في الطَّـرفِ المقابلِ للكفَّارِ، والمنافقـينَ في كُلِّ شيءٍ، فهؤلاءِ يعصُونَ أمرَ اللّهِ سُبحانَهُ، وأُولئكَ يطيعونَهُ، هؤلاءِ يُعـادونَ النَّبيَّ، وأولئكَ يطيعُـونَ أمرَهُ، هؤلاءِ تحبطُ أعمالُهـم لكفرِهم، ورِيائِهم، ومنَّتِهـم، أمَّا أولئكَ فإنَّ أعمالَهـم محفوظةٌ عِنْدَ اللّهِ سُبحانَـهُ، وسيُثابونَ عليها؛ لاجتنابِهم هذهِ الأُمورِ.

وعلى كُلِّ حالٍ، فإنَّ أُسلوبَ الآيةِ يوحي بأنَّ مِنْ بينِ المؤمنينَ أفرادًا كانوا قد قصَّرُوا في طاعـةِ اللّهِ، ورسولِهِ، وفي حفظِ أعمالِهم عَنِ التَّلـوُّثِ بالباطلِ؛ ولذلكَ فإنَّ اللّهَ سُبحانَهُ يحذِّرُهُم في هذهِ الآيةِ.

والشَّاهـدُ لهذا الكلامِ سببُ النُّزولِ الَّذي ذكرَهُ البعضُ لهذهِ الآيةِ، وهوَ: إنَّ «بني أسـد» كانوا قد أسلمُـوا، وأتَوا رسولَ اللّهِ(ص)؛ فقالُوا: إنَّنـا نؤثرُكَ على أنفسِنا، ونحـنُ وأهلُونا رهنُ إشارتِكَ، وأمرِكَ. غـيرَ أنَّ أسلوبَهم في الكلامِ كانتْ تلوحُ مِنْهُ المِنَّةُ؛ فنزلتْ الآيةُ أعلاهُ، وحذَّرتْهُم مِنْ ذلكَ.

واستـدلَّ بعضُ الفقهاءِ بجملـةِ: (ولا تُبطلوا أعمالَكُم) على حُرمـةِ قطعِ الصَّلاةِ،

ولكـنَّ الآيـةَ موردَ البحثِ، ومـا قبلَها، وما بعدَهـا شاهدةٌ على أنَّهـا لا تتعلَّقُ بهذا الأمرِ، بل عدمُ الإبطالِ عَنْ طريقِ الشِّركِ، والرِّياءِ، والمنِّ، وأمثالِ ذلك.

وجـاءت الآيةُ الأخيرةُ مِنْ هذهِ الآياتِ مُوضِّحـةً، ومُؤكِّدةً لما مرَّ في الآياتِ السَّابقةِ حـولَ الكُفَّارِ، وتهـدي إلى الصِّراطِ المُستقيمِ مَنْ يريدُ التَّوبـةَ إلى طريقِ الرُّجوعِ؛ فتقـولُ: (إنَّ الَّذينَ كفرُوا وصدُّوا عَنْ سبيـلِ اللهِ ثُمَّ ماتُوا وهُم كفَّارٌ فلنْ يغفرَ اللَّهُ لهُـم)؛ لأنَّ أبوابَ التَّوبةِ ستُغلقُ بنزولِ الموتِ، ويحملُ هؤلاءِ أوزارَهُم، وأوزارَ الَّذينَ يضلُّونَهُم، فكيفَ يغفرُ اللهُ لهم؟

وبهـذا، فقدْ وردَ الحديـثُ في مجموعِ هذهِ الآيـاتِ عَنْ ثلاثِ مجموعـاتٍ: الكُفَّارُ، والمنافقونَ، والمؤمنونَ، وتحدَّدتْ صفاتُ كُلٍّ مِنْهُم، ومصيرُهُ.

بحـــــــــثٌ:

عواملُ إحباطِ ثوابِ العملِ:

مِـنَ المسائلِ الأساسيَّـةِ الَّتي أكَّدتْ عليها آياتُ القرآنِ المختلفـةِ، ومِنْها الآيةُ موردُ البحثِ، هـيَ أنْ يحذرَ المؤمنونَ مِنْ أنْ تحبطَ أعمالُهم كالكُفَّارِ، وبتعبيرٍ آخرَ: فإنَّ العمـلَ نفسَهُ شيءٌ، والحفاظَ عليهِ شيءٌ أهمُّ؛ لأنَّ العمـلَ الصَّالحَ، السَّالمَ، المُفيدَ هـوَ العملُ الَّذي يكونُ منذُ البدايةِ سالمًا مِـنَ العيوبِ، وأنْ يحافظَ عليهِ مِنَ الخللِ، والعيبِ حتَّى نهايةِ العمرِ.

والعوامـلُ الَّتي تؤدي إلى إحباطِ أعمالِ الإنسـانِ، أو تهدِّدُها بذلكَ الخطرِ كثيرةٌ، ومِنْ جُملتِها:

1 – المنُّ، والأذى، كما يقولُ القرآنُ الكريمُ: (يا أيُّها الَّذينَ آمنوا لا تُبطلوا صدقاتِكم بالمنِّ والأذى كالَّذي ينفقُ مالَهُ رئاءَ النَّاسِ ولا يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ)[1].

فهنا ذُكِرَ عاملانِ لبطلانِ العملِ: أحدُهما المنُّ والأذى، والآخرُ الرِّياءُ والكفرُ، فالأوَّلُ يأتي بعدَ العملِ، والثَّاني قرينُهُ، وهما كالنَّارِ يحرقانِ الأعمالَ الصَّالحةَ.

2 – العجبُ عاملٌ آخرُ في إحباطِ آثارِ العملِ، كما وردَ ذلكَ في الحديثِ: «العجبُ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النَّارُ الحطبَ»[2].

3 – الحسدُ –أيضًا– أحدُ هذهِ الأسبابِ، والَّذي وردَ فيهِ تعبيرٌ شبيهٌ بما وردَ في العجبِ، فقد رُوِيَ عَنِ الرَّسولِ الأكرمِ(ص) أنَّهُ قالَ: «إيَّاكم والحسدَ، فإنَّ الحسدَ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النَّارَ الحطبَ»[3]. وكما تُذهبُ الحسناتُ السَّيئاتِ(إنَّ الحسناتِ يُذهبنَ السَّيئاتِ)[4]، فإنَّ السَّيئاتِ تمحو كُلَّ الحسناتِ أحيانًا.

4 – المحافظةُ على الإيمانِ إلى آخرِ لحظاتِ العمرِ، وهذا أهمُّ شرطٍ لبقاءِ آثارِ العملِ؛ لأنَّ القرآنَ يقولُ بصراحةٍ: (ولقد أُوحيَ إليكَ وإلى الَّذينَ مِنْ قبلِكَ لئِنْ أشركتَ ليحبطنَّ عملُكَ ولتكونَنَّ مِنَ الخاسرينَ)[5].

مِنْ هُنا نعرفُ أهميَّةَ، ومشاكلَ، وصعوباتِ مسألةِ المحافظةِ على الأعمالِ، ولذلكَ وردَ في حديثٍ عَنِ الإمامِ الباقرِ(ع) أنَّهُ قالَ: «الإبقاءُ على العملِ أشدُّ مِنَ العملِ»، قالَ –أي الرَّاوي–: وما الإبقاءُ على العملِ؟ قالَ: «يصلُ الرجلُ بصلةٍ، وينفقُ نفقةً

1. البقرة، الآية 264.
2. روح البيان، المجلَّد 8، صفحة 522.
3. بحار الأنوار، المجلَّد 73، صفحة 255.
4. هود، الآية 114.
5. الزمر، الآية 65.

للّهِ وحـدَهُ لا شريـكَ لهُ فتُكتبُ لهُ سِـرًّا، ثُمَّ يذكرُها فتُمحى فتُكتـبُ لهُ علانيةً، ثُمّ يذكرُها فتُمحى وتُكتبُ لهُ رياءً»[6].

وقـد أشـارتِ الآيةُ -موردُ البحثِ- إشارةً خفيَّةً إلى هـذهِ الأُمورِ؛ حيثُ تقولُ: (ولا تُبطلوا أعمالَكُم)[7].

6. الكافي، المجلَّد الثاني، باب الرياء، الحديث 16.
7. لمزيد من الإيضاح والتفصيل حول مسألة إحباط العمل راجع ذيل الآية (217) مِنْ سورة البقرة.

الآيـــــــــــةُ 35

﴿فَلاَ تَهِنُواْ وَتَدْعُواْ إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35)﴾

التَّفسيرُ:

الصُّلحُ المُذِلُّ!!

متابعــةً للآياتِ السَّابقــةِ الَّتي كانتْ تتحدَّثُ حولَ مسألةِ الجهــادِ، تشيرُ هذهِ الآيةُ إلى أحــدِ الأُمورِ الهامَّةِ في مسألةِ الجهــادِ، وهوَ أنَّ ضعفاءَ الإيمانِ يطرحونَ غالبًا مسألةَ الصُّلحِ للفرارِ منْ مسؤوليةِ الجهادِ، ومصاعبِ ميدانِ الحربِ.

مِـنَ المُسلَّـمِ أنَّ الصُّلحَ خيرٌ، وحَسَنٌ جـدًّا، لكنْ في محلِّهِ؛ إذْ يكـونُ حينَها صُلحًا يُحقِّـقُ الأهـدافَ الإسلاميَّةَ السَّاميـةَ، ويحفظُ مـاءَ وجهِ المسلمـينَ، وحيثيَّتَهم، وهيبتَهـم، وعظمتَهم، أمَّا الصُّلحُ الَّذي يـؤدِّي إلى ذِلَّتِهم، وانكسارِ شوكتِهم فَلَا؛ ولذلكَ تقولُ الآيةُ الشريفةُ: الآنَ وقد سمعتُم الأوامرَ الإلهيَّةَ في الجهادِ (فَلَا تهِنُوا وتدعُوا إلى السَّلْمِ وأنتمُ الأعلَونَ)[1].

أيْ: الآنَ وقـدْ لاحتْ علائمُ انتصارِكم، وتفوُّقِكم، كيـفَ تُذلُّون أنفسَكُم، وترضونَ بالمهانةِ باقتراحِ الصُّلحِ الَّذي لا يعني إلَّا التَّراجعَ، والهزيمةَ؟ فليسَ هذا صُلحًا في الواقـعِ، بلْ هوَ استسلامٌ، وخضوعٌ ينبعُ من الضَّعـفِ، والانهيارِ، وهوَ نوعٌ مِنْ طلبِ الرَّاحةِ، والعافيةِ، ويقبحُ بكم أنْ تتحمَّلُوا عواقبَهُ الأليمةَ الخطرةَ.

1. «تدعوا» مجزوم، وهو معطوف على (لا تهنوا)، والمعنى: لا تهنوا ولا تدعوا إلى السَّلم.

ومِـنْ أجلِ رفـعِ معنويَّاتِ المسلمينَ المجاهديـنَ تضيفُ الآيةُ: (واللَّهُ معكُـم ولنْ يَترَكُم أعمالَكُـم)؛ فإنَّ مَـنْ كانَ اللَّهُ معهُ؛ تكونُ كُلُّ عواملِ الانتصـارِ مُسخَّرةً لهُ؛ فَلَا يحسُّ بالوحشـةِ أبدًا، ولا يدعُ للضَّعف، والانهزامِ سبيلاً إلى نفسِه، ولا يستسلمُ للعدوِّ باسمِ الصُّلحِ، ولنْ يدعَ نتائجَ دماءِ الشُّهداءِ، ومكاسبَهَا تذهبُ سدًى في اللَّحظاتِ الحسَّاسةِ.

(لـنْ يَترَكُم) مِنْ مـادَّةِ «الوتْرِ»، وهو المُنفـردُ؛ ولذلكَ يُقالُ لِمَنْ قُتِـلَ قريبُهُ، وبقيَ وحيدًا: وِتْرٌ.

وجاءَ أيضًا بمعنى النُّقصانِ.

وفي الآيةِ -موردِ البحثِ- كنايةٌ جميلةٌ عَنْ هذا المطلبِ، بأنَّ اللَّهَ سُبحانَهُ لنْ يتركَكُم وحدَكُم، بلْ سيقرنُكُم بثوابِ أعمالِكُم، خاصَّةً وأنَّكم تعلمونَ أنَّكم لنْ تخطُوا خطوةً إلَّا كُتبـتْ لكم؛ فلمْ يكنِ اللَّهُ لينقصَ مِنْ أجرِكم شيئًا، بلْ سيُضاعفُهُ، ويزيدُ عليهِ مِنْ فضلِهِ، وكرمِهِ.

اتَّضـحَ ممَّـا قلنـاهُ أنَّ الآيةَ مـوردَ البحـثِ لا تُنافي مطلقًـا الآيةَ (61) مِـنْ سورةِ الأنفـالِ؛ حيثُ تقولُ: (وإنْ جنحُوا للسَّلمِ فاجنحْ لها وتوكَّلْ على اللَّهِ إنَّهُ هوَ السَّميعُ العليمُ) لنجعلَ إحداهُما ناسخةً للأُخرى؛ بلْ إنَّ كُلاًّ مِنْها ناظرةٌ إلى موردٍ خاصٍّ، فإحداهُمـا تنظـرُ إلى الصُّلحِ المعقولِ، والأُخرى إلى الصُّلـحِ الَّذي ليسَ في محلِّه؛ فإنَّ أحدهُما صلحٌ يحفظُ مصالحَ المسلمينَ، والآخرُ صُلحٌ يطرحُهُ ضعفاءُ المسلمينَ وهـم على أبوابِ النَّصرِ؛ ولذلـكَ فإنَّ تتمَّةَ آيةِ سورةِ الأنفالِ تقولُ: (وإنْ يُريدوا أنْ يخدعُوكَ فإنَّ حسبَكَ اللَّهُ).

وقـدْ أشارَ أميرُ المؤمنينَ علـيٌّ(ع) إلى كلا الصُّلحين في عهدِهِ لمالكٍ الأشتر؛ حيثُ يقولُ: «ولا تدفعنَّ صُلحًا دعاكَ إليهِ عدوُّكَ ولله فيهِ رضى»[2].

إنَّ طرحَ قضيَّةِ الصُّلحِ مِنْ ناحيةِ العدوِّ مِنْ جهةٍ، وكونَهُ مُقترنًا برضى اللهِ سُبحانَهُ مِنْ جهةٍ أُخرى، يُبيِّنُ انقسامَ الصُّلحِ إلى القسمينِ اللَّذينِ أشرْنَا إليهِما فيما قلناهُ.

وعلى أيَّةِ حالٍ؛ فإنَّ أمراءَ المسلمينَ، وأولياءَ أُمورِهم يجبُ أنْ يكونوا في غايةِ الحذرِ في تشخيصِ مواردِ الصُّلحِ، والحربِ، والَّتي هيَ مِنْ أعقدِ المسائلِ، وأدقِّهَا، لأنَّ أدنى اشتباهٍ في المُحاسبةِ سيستتبِعُ عواقبَ وخيمةً في هذا المجالِ.

2. نهج البلاغة، الرِّسالة 53.

الآيـــــــــــات 36 - 38

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (37) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم (38)﴾

التَّفسيرُ:

إنْ تتولَّوا سيمنحُ اللهُ الرِّسالةَ قومًا آخرينَ:

قلنَا: إنَّ سورةَ مُحمَّدٍ هيَ سورةُ الجهادِ؛ فبأمرِ الجهادِ بدأتْ، وبهِ تنتهي، والآياتُ موردُ البحثِ -وهيَ آخرُ آياتِ هذهِ السُّورةِ- تتناولُ مسألةً أُخرى منْ مسائلِ حياةِ البشرِ في هذا الميدانِ، فتطرحُ كونَ الحياةِ الدُّنيا لا قيمةَ لها؛ لزيادةِ ترغيبِ المسلمينَ، ودعوتِهم إلى طاعةِ اللهِ سُبحانَهُ عمومًا، وإلى أمرِ الجهادِ بالخصوصِ؛ لأنَّ حبَّ الدُّنيا، والانشدادِ إليها أحدُ عواملِ المُهمَّةِ الَّتي تعوِّقُ عنِ الجهادِ؛ فتقولُ: (إنَّما الحياةُ الدُّنيا لعبٌ ولهوٌ).

«اللَّعبُ» يُقالُ للأعمالِ الَّتي تتَّصفُ بنوعٍ من الخيالِ؛ للوصولِ إلى هدفٍ خياليٍّ، و«اللَّهوُ» يُقالُ لكُلِّ عملٍ يشتغلُ الإنسانُ بهِ؛ فيصرفُهُ عَنِ المسائلِ الأساسيَّةِ.

والحقُّ أنَّ الدُّنيا لعبٌ، ولهوٌ ليسَ إلَّا؛ فَلَا يحصلُ منْها أنسٌ، وارتياحٌ، وليسَ لها دوامٌ، وبقاءٌ، وإنَّمَا هيَ لحظاتٌ كلمحِ البصرِ، ولذَّاتٌ زائلةٌ، تحفُّها الآلامُ، والمتاعبُ.

ثُـمّ تضيفُ الآيةُ: (وإنْ تؤمنوا وتتَّقُوا يؤْتِكُم أجورَكُـم ولا يسأَلْكُم أموالَكُم)[1] فَلَا أنَّ اللّه يسأَلُكُـم أجـرًا مقابلَ الهدايةِ، والرَّشـادِ، وكُلِّ تلكَ الهبـاتِ العظيمةِ في الدُّنيا، والآخرةِ، ولا رسولُهُ، فإنَّ اللّه تعالى غنيٌّ عَنِ العالمينَ، ولا يحتاجُ رسولُهُ إلى غيرِ اللّهِ.

وإذا كانَ الشَّيءُ الزَّهيدُ منْ أموالِكُم يُؤخذُ كزكاةٍ، وخُمُسٍ، وحقوقٍ شرعيَّةٍ أُخرى؛ فإنَّـهُ يعودُ عليكُـم، ويُصرفُ فيكُم؛ لحمايـةِ يتاماكُم، ومساكينِكُـم، وضعفائِكُم، وأبنـاءِ السَّبيلِ منْكُم، وللدِّفاعِ عَنْ أمنِ بلادِكـم، واستقلالِها، ولاستقرارِ النِّظامِ، والأمنِ، ولتأمينِ احتياجاتِكُم، وعمرانِ ديارِكُم.

بنـاءً على هذا؛ فحتَّى هـذا المقدارُ اليسيرُ هـوَ منْ أجلِكم، ومنفعتِكُـم؛ فإنَّ اللّه، ورسولَـهُ في غنًى عَنْكُم؛ وبذلـكَ فلا مُنافاةَ بينَ مفهومِ هذهِ الآيـةِ، وآياتِ الزَّكاةِ، والإنفاقِ، وأمثالِها.

ثَمَّـةَ احتمالاتٌ أُخرى عديـدةٌ في تفسيرِ جملةِ: (ولا يسأَلْكُـم أموالَكم)؛ ولرفعِ ما يبـدو في الظَّاهـرِ تناقضًا؛ فقالَ البعضُ: إنَّـهُ تعالى لا يسأَلُكُم شيئًـا منْ أموالِكم مقابـلَ الهدايةِ، والثَّوابِ. وقالَ آخـرونَ: إنَّهُ تعالى لا يسأَلُكم كُلَّ أموالِكم؛ بل يريدُ قسمًا منْها فقطْ.

1. جملة(لا يسأَلْكم) مجزومة، ومعطوفة على جزاء الجملة الشرطيَّة، أي: يؤتِكم.

وقـالَ جماعـةٌ: إنَّ هذهِ الجملةَ إشارةٌ إلى أنَّ أموالَ الجميـعِ مِنَ اللهِ سُبحانَهُ، وإنْ كانتْ ودائعَ بأيدِيْنَا أيَّامًا قليلةً.

لكنَّ أفضلَهَا جميعًا هوَ التَّفسيرُ الأوَّلُ.

وعلـى أيَّةِ حالٍ، فلا ينبغي نسيانُ أنَّ جانبًا مـن الجهادِ هوَ الجهادُ بالأموالِ، ومِنَ الطَّبيعـيِّ أنَّ كُلَّ جهادٍ للعـدوِّ، وقتالٍ ضدَّهُ يحتاجُ إلى أمـوالٍ، وميزانياتٍ يجبُ أنْ تُجمعَ وتُهيَّأَ مِنْ قِبَلِ المسلمينَ الزاهدينَ في الدُّنيا، وغيرِ المُتعلِّقينَ بها.

والآياتُ موردُ البحثِ تُهَيِّءُ -في الحقيقةِ- الأرضيَّةَ الفكريَّةَ، والثَقافيَةَ لهذهِ المسألةِ.

ولتبيانِ تعلُّقِ أغلبِ النَّاسِ بأموالِهم، وثرواتِهم الشَّخصيَّةِ تضيفُ الآيةُ التَّاليةُ: (إنْ يسأَلْكُمُوْهَا فَيُحْفِكُم تبخلُوا ويخرجْ أضغانَكُم).

«يُحفكـم» مِنْ مادَّةِ إحفـاء، أيْ: الإصرارُ، والإلحاحُ في المُطالبةِ، والسُّؤالِ، وهيَ في الأصـلِ مِنْ حَفَـأَ، وهوَ المشيُ حافيًا، وهذا التَّعبيرُ كنايةٌ عَـنِ الأعمالِ الَّتي يُتابعُها الإنسانُ إلى أبعدِ الحدودِ، ومِنْ هنا كانَ إحفاءُ الشَّاربِ يعني تقصيرَهُ ما أمكنَ.

و«الأضغانُ» جمعُ ضغنٍ، وهوَ بمعنى الحقدِ الشَّديدِ، وقدْ أشرنَا إليهِ سابقًا.

وخلاصـةُ القولِ: فإنَّ الآيةَ تُبيّنُ التَّعلُّقَ الشَّديدَ لكثيرٍ مِنَ النَّاسِ بالأُمورِ الماليَّةِ، وهـيَ في الحقيقةِ نوعٌ مـن اللَّومِ، والتَّوبيخِ لهؤلاءِ، وفي الوقتِ نفسِهِ ترغيبٌ في تركِ هـذا الارتباطِ، وتشويقٌ إلى هذا المعنى؛ فإنَّ تعلُّقَهم بلـغَ حدًّا أنَّ اللهَ سُبحانَهُ إذا سألَهم شيئًا مِنْ أموالِهم؛ فإنَّهم يغضبونَ، ويحقدونَ عليهِ!

وبذلكَ فإنَّ الآيةَ تريدُ أنْ تُوقظَ أرواحَ البشرِ الغاطَّةِ في نومِها العميقِ بسوطِ التَّقريعِ، والملامةِ، والعتابِ؛ ليرفعُوا عَنْ أعناقِهم قيودَ الذُّلِ، والعبوديَّةِ للأموالِ، ويصبحُوا في حالٍ يُضحُّونَ عِنْدَهَا بكُلِّ ما لديهِم في سبيلِ اللّهِ، ويُقدِّمونَ ما عِنْدَهُم بينَ يديهِ، ولا يرجونَ في مقابلِ ما يُعطُونَ إلَّا الإيمانَ بهِ، وتقواهُ، ورضاهُ عَنْهُم.

والآيةُ الأخيرةُ من الآياتِ موردِ البحثِ -وهيَ آخرُ آيةٍ مِنْ سورةِ مُحمَّدٍ- تأكيدٌ آخرُ على ما مرَّ في الآياتِ السَّابقةِ حولَ المسائلِ الماديَّةِ، وتعلُّقِ النَّاسِ بها، ومسألةِ الإنفاقِ في سبيلِ اللّهِ؛ فتقولُ: (ها أنتم هؤلاءِ تُدعَونَ لِتُنفقوا في سبيلِ اللّهِ فمِنْكُم مَنْ يبخلُ).

وهنا يأتي سؤالٌ، وهوَ: إنَّ الآياتِ السَّابقةِ قد ذكرتْ أنَّ اللّهَ لا يسألُكُم أموالَكُم، فكيفَ أمرتْ هذهِ الآيةُ بالإنفاقِ في سبيلِ اللّهِ؟

غيرَ أنَّ تتمَّةَ الآيةِ تجيبُ عَنْ هذا السُّؤالِ عَنْ طريقينِ؛ فتقولُ أوَّلاً: (ومَنْ يبخلْ فإنَّما يبخلُ عَنْ نفسِه)[2]؛ لأنَّ ثمرةَ الإنفاقِ تعودُ عليكُم أنفسكُم في الدُّنيا، والآخرةِ؛ حيثُ يقلُّ التَّفاوتُ الطَّبقيُّ؛ وعِنْدَهَا سيعمُّ الأمنُ، والهدوءُ في المجتمعِ، وتحلُّ المحبَّةُ، والصَّفاءُ محلَّ العداوةِ، والحقدِ.

هذا ثوابُكُم الدُّنيويُّ وأمَّا في الآخرةِ؛ فستُمنحونَ مقابلَ كُلِّ درهمٍ، أو دينارٍ تنفقونَهُ الهباتِ، والنِّعمَ العظيمةَ الَّتي لم تخطرْ على قلبِ بشرٍ، وعلى هذا فإنَّ مَنْ يبخلْ يبخلْ عَنْ نفسِه!

وبتعبيرٍ آخرَ: فإنَّ الإنفاقَ هنا يعني أكثرَ ما يعني الإنفاقُ في أمرِ الجهادِ، والتَّعبيرُ

2. «البخل» يتعدّى مرة بِعَنْ، وأخر بعلى، وعلى الأوّل يعني المنع، وعلى الثّاني يعني الإضرار.

بـ(في سبيلِ اللهِ) يلائمُ هذا المعنى أيضًا، ومِنَ الواضحِ أنَّ أيَّ نوعٍ من المساهمةِ في تقدُّمِ أمرِ الجهادِ؛ سيضمنُ وجودَ المجتمعِ، واستقلالِهِ، وشرفِهِ.

والجـوابُ الآخرُ هـوَ: (واللهُ الغنـيُّ وأنتمُ الفقـراءُ)؛ فهوَ غنيٌّ عَـنْ إنفاقِكم في سبيلِـهِ، وغنيٌّ عَـنْ طاعتِكم، وإنَّمـا أنتمُ الفقـراءُ إلى لطفِهِ، ورحمتِـهِ، وثوابِهِ، وكرمِهِ في الدُّنيا، والآخرةِ.

إنَّ الموجوداتِ المُمكنةَ -وما سوى اللهِ سُبحانَهُ- مُتسربلةٌ في الفقرِ جميعًا، والغنيُّ بذاتِـهِ هـوَ اللهُ سُبحانَـهُ لا غيرَ، فإنَّها فقـيرةٌ إليهِ دائمًا، حتَّـى في أصلِ وجودِها، وتستمـدُّ العونَ مِنْ منبـعِ الفيضِ الأزليِّ كُلَّ لحظةٍ، فإذا انقطعـتْ عَنْهَا رعايتُهُ، ولطفُـهُ لحظـةً؛ فسينتهـي وجودُها، وتخـرُّ أبدانُهاً جثثًـا هامدةً! وتُحـذِّرُ الجملةُ الأخـيرةُ جميعَ المسلمينَ أنِ اعرفُوا قـدرَ هذهِ النِّعمةِ الجليلـةِ، والموهبةِ العظيمةِ؛ حيثُ جعلَكُـم سُبحانَهُ حُماةَ دينِهِ القويمِ، وأنصارَ دينِهِ، وأتباعَ رسولِهِ، وأصحابَهِ، فحذارِ أنْ تُقصِّرُوا في تعظيمِ هذهِ النِّعمةِ، وإكبارِهَا؛ إذ: (وإنْ تتولَّوا يستبدلْ قومًا غيرَكُم ثُمّ لا يكونوا أمثالَكُم).

أجـلْ، إنَّ هـذا الحملَ لنْ يسقـطَ على الأرضِ أبدًا، وهـذهِ الرِّسالـةَ العظيمةَ لا يمكـنُ أنْ يتوقَّـفَ مسيرُهَا؛ فـإنْ أنتم لم تستمـرُّوا في موقفِكم في الـذَّبِّ عَنْ دينِ اللهِ، واستصغـرتُم شأنَ هذهِ الرِّسالةِ العظيمةِ؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَهُ سوفَ يأتي بقومٍ يتحمَّلونَ أعباءَ هذهِ الرِّسالةِ... أُولئكَ قومٌ يفوقونَكُم مرَّاتٍ في الإيثارِ، والتَّضحيةِ، وبذلِ الأنفسِ، والأموالِ، والإنفاقِ في سبيلِ اللهِ!

وقـدْ جاءَ نظيرُ هذا التَّهديدِ في الآيـةِ (54) مِنْ سورةِ المائدة؛ حيثُ تقولُ: (يا أيُّها الَّذيـنَ آمنوا مَنْ يرتدَّ مِنْكُم عَـنْ دينِهِ فسوفَ يأتي اللّهُ بقومٍ يُحبُّهم ويحبُّونَهُ أذلَّةٍ على المؤمنينَ أعزَّةٍ على الكافرينَ يجاهدونَ في سبيلِ اللّهِ ولا يخافونَ لومةَ لائمٍ).

والطَّريـفُ أنَّ أكثرَ المُفسِّرينَ قد نقلُوا في ذيلِ الآيةِ -موردِ البحث- أنَّ جماعةً مِنْ أصحابِ رسولِ اللّهِ(ص) سألوهُ بعدَ نزولِ هذهِ الآيةِ: مَنْ هؤلاءِ الَّذينَ ذكرَهُمُ اللّهُ في كتابِهِ؟ وكانَ «سلمانُ» جالسًـا قريبًا من النَّبيِّ(ص)؛ فضربَ النَّبيُّ(ص) بيدِهِ علـى فخذِ سلمانَ -وفي روايةٍ على كتفِه- وقالَ: «هذا وقومُهُ، والَّذي نفسي بيدِهِ لو كانَ الإيمانُ منوطًا بالثُّريَّا لتناولَهُ رجالٌ مِنْ فارسَ».

لقـدْ أوردَ هـذا الحديـثَ وأمثالَـهُ محدِّثُـو السُّنَّةِ المعروفـونَ في كتبِهـم المعروفةِ، كالبيهقـيِّ، والتِّرمذيِّ، وعليهِ اتِّفاقُ مفسِّريِّ الشِّيعةِ، والسُّنَّةِ المشهورينَ، كصاحبِ تفسـيرِ القرطبيِّ، وروحِ البيـانِ، ومجمعِ البيانِ، والفخرِ الـرازيِّ، والمراغيِّ، وأبي الفتوحِ الرازيِّ، وأمثالِهِم. ووردَ في تفسيرِ الدُّرِّ المنثورِ عدةُ أحاديثَ في هذا البابِ، في ذيـلِ الآيةِ موردِ البحـث[3]. ورُوِيَ حديثٌ آخرُ عَنِ الإمـامِ الصَّادقِ(ع)، يكملُ الحديثَ السَّابقَ؛ إذ يقولُ: «واللّهُ أبدلَ بهم خيرًا منهم الموالي»[4].

إذا نظرنـا إلى تاريـخِ الإسـلامِ، والعلـومِ الإسلاميَّـةِ بدقَّـةٍ، وبنظرةٍ بعيـدةٍ عَنِ التَّعصُّـبِ، ولاحظْنَـا سهمَ المسلمينَ غـيرَ العربِ -الإيرانيِّينَ خاصَّـةً- في ميادينِ الجهـادِ، ومحاربةِ العدوِّ من جهـةٍ، وتنقيحِ العلومِ الإسلاميَّـةِ، وتدوينِها من جهةٍ أُخرى؛ فسنطَّلِعُ على حقيقةِ هذا الحديثِ، وتفصيلُ هذا الكلامِ طويلٌ.

3. الدر المنثور، المجلَّد 6، صفحة 67.
4. تفسير مجمع البيان، الجزء 9، صفحة 108.

اللّهمَّ! ثبِّتْ أقدامَنَا في طريقِ الجهادِ، والإيثارِ، والتَّضحيةِ في سبيلِ دينِكَ القويمِ.

اللّهمَّ! لا تسلبْنَا ما منحتَنَا مِنَ الفخرِ العظيمِ؛ إذْ جعلتَنَا دُعاةً لدينِكَ الحنيفِ.

إلهنا! زدْ في قُوَّتِنَا، وإيماننَا، وتضحياتِنَا، وإخلاصِنَا في هذا الوقتِ الَّذي هبَّتْ فيهِ عواصفُ الشَّرقِ، والغربِ الهوجاءُ لمحوِ آثارِ دينِكَ.

آمين يا ربَّ العالمينَ

نهايةُ سورةِ مُحمَّدٍ

مسابقة اقرأ القرآنية

1441 (13) 2019